كانت دروس وتعلمناها

تأليف

محسن سيف الدين

مقدمة الكتاب

في زمن باتت فيه الأرواح منهكة، والمشاعر تُستنزف على قارعة العلاقات، وقلوب الناس لا تشبه وجوههم جاءت هذه الصفحات لتمنح قليلًا من الضوء في العتمة، وكثيرًا من الصدق في عالم يفتقر إلى الدفء. ليست هذه الكلمات مجرد سطور تُقرأ، بل هي نبضٌ نابع من التجربة، من الوجع، من الخذلان، ومن لحظات الانكسار التي لم تجهز لها الروح، لكنها وقفت بعدها وكتبت.

ما بين الصمت الطويل والكلمات التي لم تُقل وُلد هذا الكتاب. كل فصل منه كأنه شهقة لم يكن لها متسع من الهواء فاختارت الورق مأوى. فهنا، لا وعظ ثقيل، ولا تجميل زائف للواقع، بل اعترافات مكتومة تناثرت على هيئة تأملات ووقفات حادة مع النفس ومع الآخرين.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأنعام: 104)

ربما يجد القارئ نفسه في هذه الكلمات، وربما يرى وجوهًا مرّت به

وربما يستفيق قلبٌ كاد يعتاد الانطفاء. فالمعاني هنا لم تُنسَج بعناية لغوية باردة، بل صيغت بحرارة التجربة، بشغف البوح، وبقلم لم يطلب التصفيق بل السكينة.

قال تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(الذاريات: 21)

هذا الكتاب ليس ترفًا عاطفيًا

بل مرآة لما نخفيه غالبًا خلف ضحكاتنا، وصرخات لا يسمعها أحد. هو محاولة لأن يجد كلّ تائه بعضًا من ذاته، وكل صادق بعض الطمأنينة، وكل موجوع عزاءً صادقًا لا يتكلف دفئه.

هكذا أراد سيف الدين أن يفتح بابه… فادخل دون أن تطرق.

لا تُعطِ القلوب لأيدٍ مخفيّة

في عالم امتلأ بالوجوه المتشابهة، لم تعد النوايا تُقرأ من الملامح، ولا الأيادي الممتدة تُعبّر عن صدق الشعور. هناك من يُظهر التودد، لكنه يُخفي وراء ظهره ما لا يُقال. لا يُصافح بيد مكشوفة، بل يحتفظ بشيء آخر في يده الأخرى، كأنها مرهونة لوقت الغدر أو اللحظة المناسبة للطعن.

ليس كل من يبتسم صادقًا، ولا كل من
يُبدي الود نقيًا. فهناك من تمرّن على التلوّن وأتقن صناعة الأقنعة، وتدرّب طويلًا على إتقان دور المحب الوفي بينما قلبه مشغول بالحسابات، وعقله يخطّط لأشياء لا تُقال. هؤلاء هم من يُخفون أيديهم خلف ظهورهم.

جاء في القرآن الكريم تصوير دقيق لهؤلاء، في قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

(البقرة: 204)

القول يُعجب، والظاهر يبدو رحيمًا لينًا، لكن ما في القلب شديد، متصلّب، مهيأ للعداوة متى انقلبت المصالح. هذا النمط من الناس لا يحمل ودًا، بل يتخذ الودّ ستارًا لتأمين غاياته. في الآية التي تليها، يُكشف الستار عن حقيقته:

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾

(البقرة: 205)

فور أن يُحقق مبتغاه، ينكشف القناع، ويتحوّل من وداعٍ إلى مُفسد، لا يترك خلفه إلا الخراب. يقتل الزرع، ويقطع النسل، ويهدم ما بُني من ثقة في لمح البصر. إن اليد المخفية، لا تُخفي إلا نية مغشوشة، أو خيانة مؤجلة.

لهذا، فإن الحذر منها فريضة عقلية، وضرورة وجودية، لا بد منها لبقاء القلب سليمًا، والعقل يقظًا.

في ضوء القرآن، تتجلى نماذج المخادعة، من أولئك الذين يخدعون لا الناس فقط، بل يحسبون أنهم قادرون على خداع الله تعالى:

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: 9)

فالخداع سلوكهم، والتضليل طريقتهم، والنوايا المظلمة تسكن أيديهم التي لا تُظهر ما تُخفي. لا يُصيبهم الخوف من أن يُكشَف أمرهم، لأنهم غرقى في ثقتهم الزائفة بذكائهم الماكر.

منح المشاعر لهؤلاء خُسران، ومنح الثقة لهم مغامرة خاسرة. اليد التي تُخفى وراء الظهر، غالبًا لا تحمل زهرة، بل خنجرًا أو قيدًا.

لا تُصنع العلاقات السليمة إلا بين أيدٍ مكشوفة وأرواح بيضاء لا تخشى أن تُظهر ما في باطنها.

كل يد مخفيّة، علامة خطر. وكل علاقة يُظللها الغموض، معرضة للانفجار.

فحين تُخفى اليد، تختفي النية، وحين تختفي النية لا يبقى للحقيقة من وجود.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟﴾

(الأنكبوت: 4)

فالعاقبة دومًا للخداع هي الفضيحة، ولو بعد حين. وميزان الله لا يخطئ. فالمكر لا يستقر، والغش لا يدوم، والقلوب المُخدوعة لا تكسر إلى الأبد.

قال "أنا مختلف"... فاكتُشف أنه نسخة متكرّرة

تتسلل الكلمات الأولى بمَهابة الواثق، يتقدّم وهو يرفع صوته على السكون: "أنا مختلف".

تبدو العبارة مشتعلة، كأنها تُبشّر بكسر النمط، بوعدٍ لا يشبه ما قبله، وبخروج من دائرة التكرار الأبدي. لكن ما إن تبرد الكلمات وتنسحب المظاهر، حتى ينكشف المألوف في أدق التفاصيل.

الهيئة صُنعت من قوالب جاهزة، والقناعات مأخوذة من رفوف الآخرين.لم يكن اختلافًا... بل نسخة مكررة في ثوبٍ جديد.

الاختلاف الحقيقي لا يحتاج إلى إعلان. لا يُعلن الحديد عن صلابته، ولا البحر عن عمقه، ولا النار عن حرارتها. كلّ ما هو أصيل يُثبت ذاته بصمته، وتكشف هويته من دون أن يتحدث. أما أولئك الذين يرفعون راية التفرّد بألسنتهم، كثيرًا ما تُسقطهم التفاصيل.

فالاختلاف لا يُقال، بل يُرى. ولا يُلفَظ، بل يُعاش.

جاء في محكم التنزيل وصفٌ دقيق لحالة من يرفعون صوتهم لا لأنهم يحملون فكرًا، بل ليُقال عنهم إنهم شيء آخر:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾

(المنافقون: 4)

الإعجاب السطحي لا يعكس الجوهر، والكلام المعسول لا يُخفي خواء الداخل. كالأخشاب المسنّدة قائمة بثباتٍ مزيّف، لكنها ميتة من الداخل، لا ظلّ لها ولا حياة تسري فيها.

ما أكثر الذين يتحدثون عن ذواتهم كأنهم لا يُشبهون أحدًا، لكن ما إن يُلامسهم الصمت، حتى تظهر لهم مرآة الحقيقة: وجوههم انعكاس لما سبق، وخُطاهم تتبع أثرًا ممحوًا تكرر

آلاف المرات.

في وصف آخر، قال تعالى:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾

(البقرة: 10)

ذاك المرض ليس دائمًا كراهية

بل أحيانًا وهمٌ بالتفرّد، وغرورٌ لا يستند إلى شيء. يظن نفسه جديدًا على الأرض، وهو لا يدري أنه يمشي على جسر منسوخ بُني من توهّم.

ثم تأتي الحقيقة كما هي، صارخة، حين يُظَن أن أحدهم خارج النسق، فإذا به يعيد ذات

الأقوال، يتبنّى ذات المواقف، ويكرر ذات الأخطاء.

كل ما تغيّر هو الترتيب... أما المحتوى فواحد.

قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

(الكهف: 103-104)

المأساة لا تكمن في التقليد فقط، بل في الظنّ أنه إبداع. أن يُعاد الموروث بأسلوب جديد ثم يُنسب إلى العبقرية، بينما هو تكرار بوجه مزيّف.

هكذا تتشابه النسخ، وتتعاقب الأصوات

وتتراكم الأقنعة. كلهم يقولون: "أنا مختلف"... لكن لا جديد تحت الشمس.

لم يسأل عنك إلا حين احتاجك

في زوايا النسيان يتوارى السؤال، ويبهت الحضور ويتحول الودّ إلى ظلٍّ باهت لا يُطلّ إلا حين تُعلن الحاجة عن نفسها.

لا ذكر في ساعة الفرحولا التفاتة في وقت الراحة

ولا دعوة صادقة من بعيد

لكن حين تشتد الحاجة يُبعث الصوت من تحت الركام، وكأن صمته الطويل لم يكن، وكأن الذاكرة لم تخن.

القلوب التي لا تُحرّكها المحبة، بل تدفعها المصلحة لا تعرف الطريق إلى الوفاء. إنّها قلوبٌ تسكنها الحسابات، تُعطي بقدر ما تأخذ، وتقترب فقط حين تكون الحاجة جسرًا للعبور.

الصمت الطويل الذي يسبق السؤال ليس حياءً، بل تجاهل. والعودة المفاجئة ليست حنينًا، بل طلبٌ مقنّع.

هكذا تتكلم الوجوه حين تنطق الحاجة.

قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾

(الحج: 11)

نفس السلوك في العلاقة بين العبد وربه، يتكرر بين البشر. عبادة على حرف، ومودة على مصلحة ووجود مرهون بالعطاء.

إذا حضر النفع ظهر الإخلاص وإذا غاب، انقلب الوجه وانقطع الطريق.

في كل زمان

يظهر من يجعل السؤال مشروطًا بالحاجة

والاهتمام مرتبطًا بالمنفعة. لا يسأل بدافع الحنين، بل بدافع الحساب.

وما أشد مرارة السؤال حين يأتي من غيابٍ طويل لا تفسير له سوى الانتهازية.

فالألفة لا تولد من الحاجة، بل من المودّة. والاهتمام الحقيقي لا ينتظر حاجة كي يتحرك.

جاء في سورة الإنسان وصفٌ رفيع للذين يُعطون من غير انتظار، ويُقدمون بلا طلب، فيقول:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾

(الإنسان: 8-9)

هكذا يكون الصفاء: لا مصلحة تحرّكه، ولا انتظار للرد ولا لحظة عودة عند الحرج.

أما القلوب التي لا تنبض إلا في موسم الطلب، فهي قلوبٌ باردة، تعرف الحاجة أكثر مما تعرف الحب.

ذلك النوع من العلاقات هشّ، متقلّب، موقّت. يحضر بثقل، ويغيب بسرعة.

لا جذور له

ولا ظلّ له

ولا تاريخ يُبنى عليه

وحين تنتهي الحاجة، ينتهي الوجود.

قال تعالى:

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾

(البقرة: 166)

الروابط القائمة على الحاجة فقط، مصيرها الانقطاع.
والمودة المبنية على المصالح

تنتهي حين تنفصل الأسباب، وتبرد الحاجات ويُرفع الستار عن النوايا.

ليس كل من يسأل، يهتم. وليس كل من عاد، اشتاق.
أحيانًا، يكون السؤال أداة، لا مشاعر.وهناك فرق عميق بين من يبحث لأنك تسكنه، ومن يطرق الباب لأنك تملك ما يريده

حين وعدك بالوقوف، اختفى حين حانت الوقفة

الوعود حين لا تختبر، تبدو براقة، دافئة، مطمئنة وكأنها صكوك نجاة في أزمنة الغرق.

لكنها في لحظة الصدق
تسقط من يد قائلها وتتلاشى كما تتلاشى الظلال عند انبلاج الفجر. فالمواقف لا تصنع الرجال فقط، بل تكشف الأقنعة وتفضح الألسنة التي زيّنت الكلمات بما لا تطيق الأفعال.

كثيرون تكلموا عن الوقوف، عن الدعم، عن الوجود ساعة الحاجة

لكن القليل فقط من وثق كلامه بالحضور. أما البقية فقد اختفوا كما يختفي السراب حين تقترب منه الأرجل المثقلة بالتعب.

تراجعوا إلى الخلف، أو ذابوا في الصمت، أو تنكروا لما قالوه ذات يوم بنبرة اليقين.

في لحظة الوقفة لا حاجة للكلمات، بل للثبات.

لا يُطلب الحضور الرمزي، بل الظهور الحقيقي
الصادق، المتجرد من الحسابات.

وحين يُغيب هذا الحضور يظهر الفراغ قاسيًا، وتبدو
الخيانة مؤلمة أكثر من أي غياب.

قال الله تعالى:

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

(الأعراف: 78)

جثوم الصمت وقت الوقفة كجثوم الهزيمة، لا يعلنه سوى العجز، ولا يسبقه سوى الكذب في الوعد.

وكم من يدٍ تعهدت أن تكون سندًا، ثم تخلت عند أول ارتجاج.

وكم من لسانٍ أقسم أن لا يبتعد، ثم صار أول من يفرّ عند المواجهة.

الوعد إذا لم يكن ممزوجًا بالعزم، فليس سوى ترفٍ لفظي، لا قيمة له عند الزلازل.

قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾

(البقرة: 204)

القول وحده لا يصنع الصدق.

والوعد لا يكتمل إلا بالفعل.

والمواقف وحدها من تفصل بين الصادقين و المتجمّلين.

غادروك حين مال عليك سقف الألم

الوقفة ليست صدفة، بل اختبار. ومن لم يكن صادقًا في الوعد، لن يكون أهلًا للوقوف.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(الصف: 2-3)

هكذا تسقط الأقنعة حين يحين وقت الثبات.وهكذا يُعرف من وعد بصدق، ومن اختفى، وترك الكتف عاريًا، والظهر بلا سند.

من قال لك "أنت مثل أخي"... فاحذر من جرحه

تحت غطاء الألفة المصطنعة، يتسلل كثيرٌ من القول المُنمّق، يُفرش بمزاعم القرابة، ويُطلى بدهان المحبة فيبدو ناعمًا، غير مؤذٍ، لكنه يحمل تحت سطحه حدّة السكين.

"أنت مثل أخي"، جملة قد تبدو بريئة، لكن وقعها إذا ما زاغ القلب وانحرف النية، يتحول إلى باب من أبواب الإهمال والتسويف، بل وربما الطعن في مواطن الثقة.

كلمات القرب حين تقال بلا رابطٍ حقيقي من الصدق تصبح عبئًا لا رباطًا، وتغدو مبرّرًا للخذلان لا للوفاء. فمن جعل غير الشقيق شقيقًا في الوصف، ثم نكص عن المعنى وقت الحاجة، فقد أساء إلى الاثنين معًا الموصوف والأخ الحقيقي.

الله جل وعلا ميّز الأخوة بميثاق الدم، لا بالكلام العابر. وجعل القلوب مرآة للصدق، لا لسوء النية المغلّفة بحلو القول.

قال تعالى:

﴿وَيُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾

(آل عمران: 154)

فكم من قول جميل أُخفي تحته ما يُخالفه من الغرض.

وكم من شخص استخدم التودّد ليُخفِي وراءه نصلًا مُعدًّا ليوم يُجرَح فيه القلب بلا رحمة، لأن "الأخوّة" التي تحدّث عنها كانت مجرّد ستار.

قال تعالى:

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾

(المنافقون: 4)

فالخوف الحقيقي لا يأتي ممن أعلن خصومته، بل ممّن لبس ثوب الحميمية ثم انقضّ عند غفلة.

ذلك الجرح الذي يأتي من جهة "الأخ" المُستعار يكون أعمق، لأنه لم يُتوقع. ومن لا يُتوقع منه السوء يكون جرحه أبلغ، لأن الأمان الذي مُنح له كان بلا قيد.

تزييف المشاعر ليس خيانة فقط، بل نفاق صريح وغشّ في روابط القلوب.

قال اللّٰه:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾

(البقرة: 10)

والمريض قلبه لا يُحسن فهم قيمة القرب، ولا يقدّر حدود الأمانة في العلاقة.

من قالها، ولم يعِ ما تعنيه، فقد فتح بابًا لخذلانٍ مقنّع.

ومن تلقّاها، ولم يحتط من أثرها، فقد سلّم قلبه لقنبلةٍ زمنية.

ليس كل ما يبدو حميمًا صادقًا

ولا كل ما يقال من الألفاظ يُعبّر عن حال القلب.
وليس من قال: "أنت مثل أخي"، قد حمل في صدره حقًا مشاعر الأخوّة.

فالحذر أولى، والتمييز بين ما يُقال وما يُقصَد واجب لا يحتمل التأجيل.

فقد يأتي الجرح، لا من العدو، بل ممن قيلت منه "كلمة أخوّة"، وما حملت من معناها شيئًا.

بعض الناس يُحسن الدخول، ويُتقن الهروب

يأتون بثقةٍ لا تشوبها شبهة

كأنّهم خُلقوا ليكونوا جزءًا من الحكاية، يزرعون أنفسهم في المشهد كأنّ لهم فيه عمرًا كاملا ينسجون كلماتهم من خيوط الطمأنينة، ويتركون آثارهم في تفاصيل الأيام، ثم حين تقترب اللحظة التي تتطلّب ثباتًا، يذوبون كأنهم لم يكونوا، يتوارون في الظل ويُجيدون فنّ الغياب.

إنها مهارةُ من لا يملك صدق البقاء، يتقنُ المجيء
حين لا يُطلب، ويهرب حين يُنتظر. وقد قال الله في
وصف هذا النمط من النفوس:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

(البقرة: 204)

تلك الأقنعة التي تتزين بلغة الحب
والمودّة، تخفي خلفها هشاشة لا تصمد في وجه
المواقف. يُجيد أصحابها فنّ الاختباء خلف العبارات
المنمقة ويعرفون متى يظهرون ليرسموا ابتسامة
ومتى يتلاشون عند أول ارتجاج.

القلوب الملوّنة لا تخاف من الاقتحام، بل من الالتزام. تدخل البيوت من نوافذ الإعجاب والاهتمام لكنها ترفض البقاء تحت سقف الوفاء. وحين تشتد الحاجة، وتُفتّش الأرواح عن من يثبت، لا يُرى منهم سوى بقايا ذكريات، ورائحة انسحاب صامت.

قال الله عن أهل النفاق:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾(المنافقون: 8)

هكذا يظنّ المتراجع عن الارتباط، أن الغياب بطولة وأن الانسحاب شجاعة. لكنه لا يدري أن من سكن القلوب، ثم خذلها، إنما حفر في ذاكرة الثقة خيانةً لا تُمحى.

إنّهم يقتربون ليرسموا البداية لكنّهم لا يعرفون كيف يُكملون

يُتقنون الكلمات الأولى ولا يُجيدون السطور التي تأتي بعد أول وجع.

وجودهم مؤقت مقيد برغبة عابرة أو مصلحة دفينة فإذا ما سقط القناع لم يبقَ سوى غبار الأوهام.

ولأنهم يفرّون ساعة الوقفة، قال الله عن أشباههم:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ (التوبة: 95)

فلا يبقى لمدّعي القربان إذا خان إلّا رجس المعذرة الزائفة، لا عذر الصدق، ولا مقام الوفاء.

هؤلاء، وإن جاءوا بحفاوة، يرحلون بلا وداع. وإن ابتدؤوا بالعناية، ينتهون بخيانة.

وهكذا تنكشف الوجوه، حين تسقط الأقنعة في منتصف الطريق.

لا تثق بمن يفضّل الصمت حين تُهان

الصمتُ في حضرة الإهانة ليس حيادًا، بل تواطؤٌ مغلف بثوب البلادة. السكوت وقت الجرح ليس دليل حكمة، بل علامة تخلي. فما قيمة الرفيق إن لم يكن سيفًا حين تنهار الكرامة؟ وما جدوى القرب إن كان الحضور عاجزًا عن الانتصار؟ هناك لحظات لا يكون فيها الصمت سوى خيانة ناعمة، تواريها الملامح الجامدة والعيون المنخفضة.

من اختار السكوت حين كان الدفاع واجبًا، هو ذاته من اختار موقعه بين الخصوم لا بين

الأوفياء.

وقد جاء في القرآن الكريم وصفٌ لمن خانوا الموقف وتخلّفوا عن نصرة الحقّ:

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

(آل عمران: 122)

الانحياز لا يُقاس بالكلمات، بل بالمواقف. ومن تقاعس عن رفع صوته حين دُفنت كرامة رفيقه، فقد اختار الصمت في ميزان المروءة، وخسر فرصة أن يكون سندًا يُعتدّ به.

ذلك الذي توارى خلف العجز أو الادعاء، هو الذي إن طُلب منه الوقوف تذرّع بالهدوء

وإن اشتعلت الإهانة في صدر غيره، ادّعى أنه لا يريد التصعيد.

لكن الله عزّ وجل لا يقبل بمثل هذا الجبن في وجه الظلم، فقال:

﴿وَلَا تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾(النساء: 105)

فالمدافع عن الحق

لا يحتاج إلى من يُنكر العنف بالكلام، بل إلى من ينهض له بالبيان والموقف.

الصمتُ حين الإهانة ليس سوى غياب للشهادة وتخاذلٌ يُغري الجارح بالمزيد. إنه اختيارٌ للظل في وقتٍ لا يليق فيه إلا نور الجهر بالرفض.

وقد فضح القرآن من يلوذون بالصمت حين يجب عليهم النطق، فقال:

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ (المنافقون: 4)

لأن الصامت عند الجرح، هو شاهد زور بصمته. لم يكن يومًا في صفّ الضعيف، بل كان يزين للظالم طغيانه بصمته المريب.

ذلك النوع من القلوب، لا يُعوّل عليه عند احتدام الموقف، ولا يُنتظر منه غير الخذلان عند الشدة.

لأن من يُفضّل الصمت حين تُهان كرامة الآخرين، قد يبرر غدًا إهانة نفسه ما دام السلامة عنده أثمن من الصدق، والسكوت أغلى من الشرف.

من خان الحديث، خانك مرتين

الخيانة لا تبدأ بالطعن في الظهر

بل تبدأ أولًا بالكلمات التي تخرج من الفم ولا تجد لها حرمة. من خان الحديث، لم يخن سرًّا فقط، بل خان الميثاق الذي لم يُكتب، لكنه أشرف من كل توقيع. الكلمات حين تخرج في لحظة ثقة، تصبح أمانة ومن كسرها فقد كسر حرمة القلب الذي فتح بابه وترك داخله مكشوفًا.

الحديث خيانة عندما يُروى حيث لا يجب ويُحرّف كما لا ينبغي، ويُستخدم سلاحًا بعد أن أعطي حبًا.

ليست الخيانة فعلًا في الظاهر فقط بل
صدىً في الصدر، يدوّي حين يُكتشف أن ما قيل ذات يوم في سر

صار حكاية على الألسن.

وقد قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

(آل عمران: 119)

فالله مطلع على ما تضمره الصدور، وعلى من يتكلم بلسان الودّ ويحمل الخيانة بين ضلوعه.

ومن أفشى الحديث بعد ائتمان، فقد جمع خيانتين: خيانة الثقة، وخيانة اللحظة التي كانت طاهرة.

وقد حذّر القرآن من مثل هذه النفوس، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(الأنفال: 27)

فالحديث أمانة، وكتمان السرّ دليل صدق في العلاقة ومن أفشاه فقد أسقط القناع عن وجهه، وأظهر أنه لم يكن أهلًا للحديث، ولا أهلًا للثقة.

كل من خان الحديث، خان صاحبه، وخان ماضيه وخان نقاء اللحظات التي جمعتهما ذات مرة.

وما أكثر من لبسوا ثوب الودّ

ثم غرزوا الإبرة في خيط الكلام، فقطعوه بحديث لم يكن لهم أن ينطقوا به.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

(آل عمران: 28)

فالخيانة لا تُرتكب عبثًا

وكل كلمة تُقال بغير حق تُكتب

وكل أمانة تُخان تُوزن

ويوم يُكشف المستور ستكون الخيانة كلمة تُثقل الميزان أكثر من ألف جرح.

حين يعطيك أحدهم أذنًا، راقب عينه

ليست كل أذن منصتة صادقة، كما أن كل عين صامتة لا تخلو من حكاية. الأذن قد تتظاهر بالإصغاء أما العين فلا تحترف الكذب طويلا. هناك من يفتح أذنيه لك فقط ليجمع الكلمات، لا ليشعر بها. من يجلس متأملا، متظاهرا بأنه ينتمي إلى اللحظة قد يكون أبعد الناس عن صدقها. فبين الأذن والعين مسافة تكشف معدن الإنسان، من يُصغي بقلبه، ومن يُصغي بنية أخرى.

من يُعير أذنه ولا تشاركه عينه، يفتقد إلى الصدق في الاستماع. فقد تأتي النظرات فارغة، جافة، متحفظة بينما الكلمات التي تقال ثقيلة، مكسورة، تبحث عن موطئ صدق. والله تعالى جعل البصر سبيلا لفهم ما لا يُقال، فقال:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ۙ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(النحل: 78)

السمع والبصر والفؤاد، ثلاثية لا تنفصل. فحين يغيب البصر الصادق عن السمع، يتعطل الفؤاد، ويصير الحديث فارغًا من المعنى. في المواقف التي تتطلب احتواءً، تكون العين مرآة الشعور. ومن لا يرسل عينيه مع أذنيه، لا يريد أن يشعر، بل فقط أن يسمع وربما ليحفظ، لا ليحس.

وقد فضح القرآن من يستمع ولا يفقه، ومن ينظر ولا يتدبر، فقال:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: 179)

فالخطر ليس في غياب السمع والبصر، بل في فقدان وظيفتهما الحقيقية: الفهم والشعور والصدق. العين التي تهرب

تفضح نية الهروب من المشاركةوالاهتمام، وحتى من المحبة.

وقد جاء في القرآن توصيف العيون حين تخون فقال جل شأنه:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

(غافر: 19)

فالعين ليست مجرد نافذة، بل هي شاهد. ومن يعطي أذنه دون عينه، يترك نصف الحقيقة في العتمة. وعندها، لا يكون الاستماع مشاركة، بل تمرير وقت أو جمع معلومة، أو حتى تمهيدًا لخيانة أعمق. لا تنفصل الأذن عن العين، إلا إذا غاب الإخلاص، وكل غياب في لحظة صدق، خيانة.

لا تصدق من يقول " أحتفظ بالأسرار"

من لا يحفظ السرّ لا يعرف معنى الوفاء، ولا يدرك وزن الكلمة حين توضع في القلب دون صوت. هو كمن يستخف بالنار التي لا تُرى، حتى تلسعه.

القول " أحتفظ بالأسرار" ليس تصريحًا بالبريئة، بل إعلان عن خيانة مؤجلة.

فالعهد لا يُؤخذ من فمٍ يعترف بالعجز، ولا تُركن الراحة إلى عقل لا يُحسن الصمت.

الأسرار ليست مجرد كلمات، بل أمانات.

ومن يخون الأمانة، فقد تجاوز حدود الإنسان إلى صفات لا يقرها الخلق، ولا ترضاها المروءة. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾

(النساء: 58)

فمن يتفاخر بعدم الاحتفاظ بسر، لا يُؤتمن على قلب، ولا يُصاحب في عُمق، لأن السر ليس مجرد خبر، بل علاقة . والسر حين يُقال، لا يُقال للجميع، بل يُمنح للموثوق، المُختار بعناية، الذي لا يتباهى بضعفه، ولا يعلنه مبدأ.

من يكشف السر يُطفئ الشعلة الأولى في نور الثقة . ثم يبدأ في نشر الرماد، ويظن أنه لا يُرى. لكن الله عزّ وجل فضح هذا السلوك، وذكره في سياق الإفك و الخيانة فقال:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾

(النور: 15)

من لا يحتفظ بالأسرار، لا يُحسن صيانة القرب، ولا يفقه حرمة القول، ولا يحترم قَدْرَ من وثقه. فاللسان الذي لا يعرف باب الكتمان، يسهل عليه فتح أبواب الندم. والكتمان خُلق، لا يُعلّمه الادعاء، بل يُثبته الفعل.

وفي كتاب الله، جاء الوصف الدقيق لأهل النفاق الذين يُفشون ما يُستر، ويُبدون ما يُخفى، فقال تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (التوبة: 58-78)

ليس كل من صرّح بضعفه صادقًا.

فبعض التصريحات تُقال تمويهًا.

وبعضها يُقال لتبرير قادم.

والسر حين يُفرّط فيه مرة، ينكسر إلى أبد. ومن لا يحتفظ بأسرار غيره، لا يحتفظ حتى بأسرار نفسه، و لا يُحسن أن يكون صديقًا، أو حتى عابرًا بأدب.

الثقة العمياء بابٌ لمآسي لا تُشفى

حين تُمنح الثقة دون بينة، تصبح الطريق ممهّدة لسقوط لا يُحمد عقباه.

ليس كل ما يبدو طاهرًا في الظاهر، يحفظ النقاء في الباطن. والثقة حين تعمى لا تُبصِر مواضع الخيانة بل تفتح لها أبواب القلب وتغلق أبواب الحذر.

النفوس لا تقرأ بالنية وحدها، بل تُوزن بالأفعال وتُختبر في المواقف.

فكم من مبتسم يُخفي خنجرًا وكم من قريب يتحول إلى غريب حين يحين وقت الوفاء.

وقد جاء التحذير الإلهي من التسليم المطلق والثقة غير المشروطة، في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: 71)

لأن الغفلة لا تبرّر العثرة

واليقين غير المبني على دلائل، يتحول إلى ضلال في التقدير.

فالثقة لا تُعطى عمياء، بل تُمنح بتدرّج، وتُراقب في مسارها، وإلا تحوّلت إلى لعنة لا تُمحى آثارها من القلب، ولا تُشفى ندوبها مع الزمن.

قد تُسلّم النفس على نية الصفاء، وتُفتح الخزائن بحسن الظن

ثم تأتي الضربة ممن كان يُظن فيه الأمان. وقد أشار الله تعالى إلى ضرورة اختبار القرباء وأهل العه فقال:

﴿وَلَا تَأْمَنُوا ٱلۡفِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ كَانَ مُبۡذِّرًا﴾

(الإسراء: 26،)

فمن كان مسرقًا في أفعاله، أو مبذرًا في كلماته، لا يُؤتمن مهما بدا وديعًا. إذ أن من يفرط في القليل يُهدر العظيم دون ندم.

الخداع لا يأتي صريحًا

بل يتسلل تحت عباءة القرب وكلمة "اطمئن"
حين تصدر من فم غير مؤتمن، تحمل في باطنها ما يُنذر بالخطر.

ولذا جاء التنبيه القرآني صريحًا:

﴿فَاحْذَرُوهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

(المنافقون: 4)

لا تُغني العيون المُغلقة عن البصيرة، ولا تُعذر القلوب التي لا تتفحّص صدق ما يُلقى فيها.

فالثقة التي تُمنح دون حساب، كثيرًا ما تتحوّل إلى ندم لا يُقال، وصمت لا يُكشَف، وجرح لا يُبرأ.

أحبّك لكنه لا يعرف كيف يحميك

الحبّ لا يُقاس بالكلمات وحدها، بل يُقاس بظلّه حين يشتدّ الهجير، وبصوته حين تصمت الدنيا، وبسيفه إذا حضر الخوف. فمحبة لا تملك درعًا، تبقى عرضة للريح والخذلان. وما فائدة قلبٍ ينبض بالعاطفة، إن لم يعرف كيف يصون من يسكنه من قسوة العالم؟

أن يقولها لا يكفي، أن يردّدها كل صباح لا يعني أنه يُجيد الوقوف على ثغورك، أو أن له القدرة على أن يكون الحائط الذي تتكئ عليه إذا مال الزمان. الحبّ إن تجرد من الحماية، يُصبح حنينًا عاجزًا، ورغبة لا حول لها.

لقد جعل اللّه تعالى من صفات الراعي الصادق، أن يكون حافظًا، صائنًا، مؤتمنًا، فقال في كتابه الكريم:

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

(يوسف: 64)

فإن لم تكن الحماية جزءًا من طبيعة الحب، فلا بقاء له طويل، ولا أمان فيه دائم. وليس كل من أحبّ أدرك مسؤوليته. قد يفتح قلبه، لكنه لا يفتح عينيه على ما يوجعك، وقد يُمسك بيدك لكنه لا يُدرك متى يجب أن يُطلقها لتنجو.

المحب الذي لا يحمي، يشبه الباب المفتوح في زمن العواصف، لا يمنع بردًا، ولا يصدّ لصًا. وقد أشار الحق جلّ وعلا إلى عظم الأمانة في القرب، في قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾

(النساء: 58)

فالحماية أمانة، ومَن يُلقي الحبّ ثم يتركه عاريًا أمام العالم، لم يُحسن ما أوكل إليه.

أن يُحَبّ أحدهم لا يعني أن يُعطى مفاتيح الروح دون اختبار.

المشاعر لا تُغني إن لم تتكئ على شهامة، ولا تُضيء إن لم تملك غريزة الحراسة.

وقد وصف الله جلّ جلاله مَن كان حفيًا بأوليائه فقال:

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ (هود: 57)

فالحفيظ لا يغفل، ولا يُسلم من يُحبّ للريح، ولا ينام حين يُهدّد من هم في كنفه.

وكل حبٍّ لا يعرف كيف يكون ظلًا، لا يُشبه ظلّ المحبين

بل يُشبه خداع الظلال عند الغروب، يطول وهمًا ويختفي فجأة.

من يتلاعب بمشاعرك لا يستحق قلبك

القلب ليس ساحةً للعب العابرين، ولا ميدانًا يمرّ عليه من لا يعرف قيمة النبض. المشاعر أمانة، ومن يستهين بها، يُسقط نفسه من دائرة الاستحقاق. فليس كل من اقترب، يستحق أن يُمنح ما خُزّن في الداخل من حنان، ولا كل من أدّعى الاهتمام، جدير بأن يُصدّق.

من يتعمّد التلاعب بالمشاعر، لا يُراعي حقّ القلب، ولا يوقّر ما أودعه الله فيه من رقّة، وقد جاء في كتابه العزيز:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا

ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾

(الأحزاب: 58)

فأي أذى أشدّ من أذى الشعور؟ وأي ظلم أعمق من كسر القلب تحت راية التسلية أو الغرور؟

من يلهو بمشاعر غيره لا يعرف معنى القرب، بل يتقن أسلوب التزييف، يُعطي بلسانه ويخون بنيّته، يتودد حين يشاء، ويختفي حين يُطالب بالصدق. وقد نبّه الحق سبحانه إلى خطر النفاق في القول والعمل فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف: 2–3)

ومن قال ما لا يفعل في الحب، لا يُغتفر له الجُرم

لأن القلوب ليست خاليةً من الرجاء، بل فيها أمنيات تُبنى على كل كلمة، وكل وعد، وكل لفتة. وحين تُخدَع هذه التوقّعات عمدًا، تسقط معها ثقة النفس بمن حولها.

التلاعب بالمشاعر خيانةٌ مُقنّعة، وظلمٌ في ثوب العاطفة. وقد جعل الله الميثاق بين القلوب أمرًا عظيمًا، فقال:

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: 21)

فإذا كان الميثاق غليظًا في الروابط

فكيف بمن يستهين بتلك الرابطة نفسها ويعبث بأعمق ما في الإنسان؟

من استساغ أن يُضحك قلبًا ثم يُبكيه، أن يُشعل أملا ثم يُطفئه لا يستحق أن يكون جزءًا من ذلك القلب.

لأن الطهارة لا تسكن حيث الحيلة، والصدق لا يلتقي بالتقلب، والنبض لا ينتمي لمن يعجز عن احترامه.

الحبّ ليس مبررًا للخذلان المتكرر

الخذلان، حين يأتي من الغريب، يُحتمل. لكن حين يتكرر ممن يحمل راية الحبّ، يصبح وجعًا يتعدّى حدود الصبر. فالحبّ الذي لا يمنع الأذى، لا يستحق أن يُكرّر اسمه على الشفاه. لا يُعقل أن يتحوّل القلب إلى ميدان اختبار، ولا أن تُغفر الطعنات فقط لأن الذي يطعن يرفع شعار الحبّ.

من يُسيء، ثم يطلب العذر باسم العاطفة

يُفرغ العلاقة من معناها، ويستبدلها بعقد من التبريرات الباهتة. في كل مرة يقال فيها: "أنا أحبك" يُرجى أن يكون الحبّ ساترًا لا سيفًا، سندًا لا ثِقلا. فالحبّ الذي لا يحمي، والذي يُخفق في مراعاة المشاعر، ليس حبًا بل ضعفًا يُغذيه التكرار.

جاء في التنزيل الحكيم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(الأنفال: 27)

وما العلاقة إلا أمانة، وما الحبّ إلا عهد، والخيانة ليست دائمًا في الغياب، بل أحيانًا في الإهمال، في التكرار، في العودة للخذلان وكأنه عادة لا ذنب.ليس كل خطأ يُغفر بمجرد العاطفة، وليس كل تهاون يُداوى بكلمة حب. من استساغ الخذلان، فقد خالف صِدق المودّة، ومن كرّر السقوط في نفس الجرح فقد خان القلب قبل أن يخون العهد.

وقد وصف الله الخائنين فقال:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾(الأنفال: 58)

الحبّ ليس رخصة للجرح، ولا شهادة عبور إلى مواضع الأذى، ولا ضمانًا يُجيز العبث

بالوجدان. التكرار لا يُطهّر الذنب، والمشاعر لا تصلح غطاءً للأخطاء التي تُزرع في الحنايا بلا توقف.

ما لا يُصحّحه الحبّ في المرة الأولى لا يُعالج

بالخضوع له في كل مرّة. فكل تبرير للخذلان باسم المحبة، هو تقليل لقيمة المشاعر، وعبث بأقدس ما في الروح.

الغيرة ليست حبًا... بل مرض

حين تتجاوز المشاعر حدّها، تنقلب إلى ما يُشبه السُّم في العسل. فليست كل نار دفئًا، وليست كل غيرة حبًا. إن الغيرة حين تفقد اتزانها، تتحوّل من عاطفة تحرس إلى نار تحرق. وتلك النار لا تأكل سوى صاحبها، ولا تُبقي على العلاقة إلا رمادًا.

الغيرة التي تترصد وتراقب، التي تفتّش وتفتعل، لا تحمي، بل تخنق بها الأرواح. يغيب فيها الاطمئنان وتزرع الظنون

ويتحوّل الحبيب إلى متهم لا ينجو من محكمة العيون، ولا من تقارير القلب المشوّهة. حين لا تترك الغيرة مساحة للثقة، تصبح سجنًا، لا حبًا.

الله عزّ وجلّ لم يربط بين الحبّ والتسلّط، بل دعا إلى بناء العلاقات على أساس المودّة والسكينة، لا على الشك والاضطراب.

قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(الروم: 21)

فأين السكينة من الغيرة المرضية؟ وأين الرحمة في مراقبة تُشبه طعنات الظنّ؟ هي ليست حبًا، لأن الحبّ لا يُشوّه ولا يُعذّب. هي مرض يتغذّى على أوهام، ويشتدّ كلما انعدمت الثقة.وحين يتضخم هذا المرض في القلب، يبدأ صاحبه بتحميل الطرف الآخر كل ما في نفسه من قلق وشكوك، فتخبو الروح، وتتآكل العلاقة

وهنا يكون الانهيار حتميًا، لأن ما بُني على الخوف، لا يصمد.

وكم من كلمة قيلت باسم الغيرة، كانت جارحة أكثر من ألف خصومة. وكم من فعل بُرّر بأنه نابع من الحبّ، وهو في حقيقته نزوة سيطرة مقنّعة.

وقد ذمّ الله تعالى الذين في قلوبهم مرض فقال:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾

(البقرة: 10)

وما الغيرة إن لم تقِم للصدق مقامًا إلا كذبة مزخرفة تفضي بصاحبها إلى مزيد من التوتّر، ثم إلى مزيد من الخسارات.

فالحبّ الحقيقي لا يُشكّك، بل يُطمئن. لا يطارد، بل يحتضن.

أما الغيرة التي تُفرّغ العلاقة من جوهرها فهي ليست عاطفة راقية.

بل سلوك مسموم يحتاج إلى شفاء لا إلى تبرير.

قالت: "أحتاج مساحة"... ثم ملأت المساحة بغيابها

حين يتوارى الحضور خلف ستار الطلب، ويُطلب الفضاء لا للراحة، بل للهروب، تُصبح المساحة ذريعة والغياب إعلانًا غير منطوق للنهاية.

ليست كل المساحات التي يُطلب فيها الابتعاد تعني رغبةً في التصالح مع الذات، بل أحيانًا تكون الخطوة الأولى نحو قطيعة لا صوت فيها إلا الصمت، ولا أثر فيها إلا الفراغ.

في البدء، يُغلف الكلام بغلالة من التهذيب: "أحتاج مساحة". فلا يُفهم من الوهلة الأولى أن تلك المساحة لا تحتمل سوى الغياب، ولا تتّسع إلا للبُعد.

ثم تبدأ ملامح الفقد بالظهور شيئًا فشيئًا: الرسائل تقل، الأصوات تختفي، والذكريات تُطوى دون وداع.

ويُغلق الباب دون أن يُقال "لن أعود"، لأن الغياب وحده قد قال كل شيء.

ليس من الصدق أن يُقال "أحتاجك"، ثم يُؤثر الغياب. وليس من الإخلاص أن يُطلب الصبر على مساحةٍ لا تُستخدم إلا للابتعاد. المساحة التي تُطلب من أجل إصلاح العلاقة لا تُستخدم لهدمها. لكن البعض لا يجيد قول الحقيقة، فيكتفي بمصطلحات محايدة تُخفي خلفها نواياه.

قال الله تعالى:

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

(الصف: 3)

فالذي يَعد بالاقتراب، ثم يختفي، لا يُمارس فقط غياب الجسد، بل غياب الوفاء. والذي يطلب وقتًا ثم لا يعود، لم يكن صادقًا في طلبه، بل كان يُجهّز لمسارٍ آخر، بعيدًا عمّن ظنّ نفسه مقصودًا بذلك الانتظار.

المسافة التي تُطلب بين الأرواح، لا تقاس بالأمتار بل بالمشاعر. وحين تتقلص المشاعر، تبدأ المساحات بالاتساع فجأة. لا لشيء، إلا لأن القلب قد تغيّر، و البوصلة قد اتجهت بعيدًا.

قال الله تعالى عن حال القلوب حين تزيغ:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف: 5)

وما من قلبٍ زاغ عن الوصل إلا وكان الغياب أول أعراضه. وما من محبٍ صادقٍ طلب وقتًا، إلا وجعل من رجوعه وعدًا لا يُخلف. أما من قال "أحتاج مساحة"، ثم غاب دون أن يلتفت، فقد قال كل ما لا يُقال.

في الفراغ الذي خلّفه الغياب، لا تُجدي الذكريات، ولا تشفع الذرائع. تلك المساحة التي وُعدت بأن تكون استراحة، تحوّلت إلى مقبرةٍ للعهد وأصبحت شاهدةً على رحيلٍ لم تُرفع له جنازة، لكنه كان موتًا من نوع آخر.

لا يُمكنك إصلاح علاقة لا يريد أحدهم إصلاحها

حين تُصبح اليد الواحدة وحدها في الساحة، لا تُصفّق. وحين تُبذل النية الصافية من طرفٍ واحد فإنها لا تُنتج وصالًا، بل إنها تستنزف حتى الفؤاد الذي أراد الخير. العلاقة التي لا يحملها الطرفان على أكتاف الود والحرص، تنكسر، لا بفعل الضربات، بل بثقل اللامبالاة.

العلاقات، مهما اشتد حبلها، تضعف حين يُمسك بها طرف، ويُفلتها الآخر. فلا الطيب يقدر أن يُرمم وحده ، ولا المخلص يستطيع أن يبني بيتًا على أرض يهدمها شريكه. ومن أعرض قلبه، فلا يُرجى منه تقويم. لأن العوَج ليس في الفعل فقط، بل في النية وفي الإرادة.

قال تعالى:

﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾

(النساء: 35)

الإرادة هي مفتاح الإصلاح. فإن غابت، غابت معها البركة، وغُلق باب العودة. لا يُصلح اللّٰه ما لا نية في إصلاحه، ولا يُبارك في جهدٍ يقابله جفاء.

العلاقة التي تحاك بالخيط الواحد، لا تلبث أن تنقطع. لأن الخيوط لا تشتد ، إلا بتشابكها. والقلوب لا تتآلف إلا إذا أرادت، وسعت، وبذلت. أما من اختار الصمت حين يعلو صوت الفقد، وركن إلى التبلّد حين يشتعل الحنين، فإنه لا يصلح لبناء، ولا يصلح حتى للذكرى.

الخذلان في العلاقات لا يكون دائمًا بصوتٍ مرتفع بل كثيرًا ما يكون في غياب الجهد، في ترك الباب مواربًا دون محاولة، في انتظار الآخر أن يُنقذ بينما لا نمد نحن يدًا.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ (الحشر: 19)

وهكذا يُنسي البعض أنفسهم حين ينسون من كان متمسكًا بهم. فيغيبون عن موضع الإصلاح، ثم يتساءلون لاحقًا كيف تهدّمت الجسور.

الإصلاح ليس مشهدًا واحدًا، بل تتابع نوايا وأفعال.
وحين تكون النية من طرف،

واللامبالاة من طرف، فإن الخطوة الأولى تكون أيضًا الأخيرة. ويُصبح كل ما يُبذل كمن ينفخ في رماد.

تلك العلاقات التي لا يريد أحد أطرافها أن يُصلح، لا يُكتب لها عمر، حتى لو طالت. فالعُمر الحقيقي ليس بالسنين، بل بالحرص، والصدق، والسعي.

وما دام أحدهم قد اختار أن يكون خارج الحكاية فمهما حاول الآخر الكتابة، ستبقى الصفحة ناقصة وسيبقى الإصلاح حلمًا لا يعيش إلا في خيال طرف واحد.

العلاقات السامة لا تُعالج... بل تُغادر

كل علاقة تُنبت في التربة المسمومة، لا تورق، بل تُثمر ألمًا. تُشبه الزرع الذي خُلط بماء ملح أجاج، لا يُرتجى منه حياة، ولا يُنتظر منه خير. السُمّ لا يتحوّل إلى دواء مهما لطُف شكله، والوجع لا يُشفى إن كان مصدره دائمًا في القلب القريب. بعض القرب موت، وبعض التعلّق عبودية مختنقة.

العلاقات التي تتغذّى على السيطرة، التلاعب، التقليل والشك، لا يُنتظر منها إصلاح، لأنها لا تعترف أصلًا بأنها خَطأ. تعيد نفسها كل مرة تحت مسميات المودة لكنها تعيد الجرح نفسه. لا تعطي إلا مزيدًا من الخذلان، ولا تنتج إلا هشاشةً في الروح.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾

(آل عمران: 118)

حين يتكلم السُمّ، لا يُخطئ القلب في تمييزه. فالبغضاء، مهما تموّهت، تفضَح من زلّة لسان، أو نظرة ازدراء، أو تصرّف لا يشبه الحب. العلاقات التي تقتل الطمأنينة، لا يمكن لها أن تُعيد السلام. من اعتاد الجَرح، لا يُحسن التضميد. ومن جعل من القرب أداةً للتحكم، لا يعرف معنى الشراكة.

الرحيل من علاقة سامّة ليس هروبًا، بل نجاة. هو قرار لا ينبع من ضعف، بل من وعيٍ بأن الترميم مستحيل مع من يهدم عمدًا. هو عودة إلى الذات التي أُهملت تحت وطأة التنازلات. وهو استجابة لنداء داخلي يقول: لم تُخلق الروح لتمضي عُمرها في الدفاع عن وجودها.

قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾

(البقرة: 206)

ذلك من لا يقبل نصيحة، ولا يرى في سلوكه خطأ
يظل يُعيد السمّ ذاته، مُحمّلًا الآخرين

باللوم، مُتنصّلًا من التغيير. العلاقات لا تُشفى بالتمنّي
، ولا تُصلَح بجهدٍ من طرفٍ واحد. وما دام الطرف
السامّ لا يرى خطأه، فإن كل محاولات العلاج تُصبِح
محاولاتٍ لمدّ عُمر العذاب، لا لإنهائه.

الرحيل من هذا النوع من العلاقات هو الطهارة بعد التلوّث، وهو العودة للحياة بعدما اختنقت في ظلال التلاعب والقلق. الرحيل هو الصدق مع النفس، و الوفاء لما تبقى منها. هو القرار الذي يُعيد البناء، بعد أن صارت العلاقة خرابًا لا يُسكن.

أما من اختار البقاء في سُمٍّ متواصل، فإنه يُعطي للسمّ شرعية البقاء. والعقل لا يُولد إلا حين يُقرّر الرحيل، لا حين يُبرّر السُمّ باسم الحُب.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾

(هود: 113)

فلا ركون إلى ظلم، ولا تبرير للأذى، ولا مكان لقلب يريد النجاة، إلا خارج سجون العلاقات السامة.
الرحيل ليس نهاية، بل بداية للعيش كما ينبغي للروح أن تعيش.

بعض الأصدقاء عبء... لا دعم

يأتون بثوب الصحبة، يحملون
أسماء مألوفة يشاركون الضحك، ويتقاسمون
التفاصيل، لكنّهم في عمق وجودهم – ثقلٌ لا
يُحتمل. ليسوا سندًا، بل عثرة. لا يرفعون، بل
يُسقطون. وجودهم لا يُبنى عليه، بل يُهدم به.
يدخلون الحياة لا ليكونوا معينًا بل ليستهلكوا ما
تبقى من طاقة، من حماس، من نقاء.

يتحدثون كثيرًا، لكن صوتهم لا يملأ فراغًا بل يزرع شكًا. يُجالسون، لكن حضورهم لا يطمئن، بل يُشبه ظلًا يلاحق دون فائدة. يتلونون حسب المصلحة يتراجعون عند الشدة، ويظهرون حين يكون الضوء كافيًا ليشعروا بأنهم جزء من النجاح، لا من المعاناة.

قال الله تعالى:

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

(الزخرف: 67)

الصداقة إن لم تبنَ على تقوى، تتحوّل مع الأيام إلى عبء ثقيل على الروح. الأخلّاء الذين لا يزرعون في القلب إلا الغفلة، ولا يُضيفون للحياة إلا صوتًا زائدًا يصيرون في ميزان الحقيقة أعداء، حتى وإن حملوا الملامح المألوفة للأصدقاء.

هم أول من يغيب حين تشتد الأزمات. يُخفون قلوبًا لا تعرف الوفاء، ويتقنون التظاهر بالاهتمام. يُحسنون الكلام، لكنهم لا يُحسنون الفعل. يُتقنون العتاب، لكنهم لا يُتقنون البذل. في حضورهم تُسرق الطمأنينة، ويُستنزف السلام.

قال تعالى:

﴿هَاأَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾

(آل عمران: 119)

وكم من علاقة صداقة هي على الحقيقة مزيّفة. يُحبّهم القلب النقي، ويُحسن الظنّ بهم، لكنهم لا يُبادلون الحبّ، بل يحملون نوايا مضمَرة. يُفرحهم السقوط، ويُزعجهم النجاح، ويتربّصون عند كل منعطف. لا يمنحون دفئًا، بل يتركون وراءهم صقيعًا لا يُحتمل.

ليس كل من شارك الرحلة كان رفيقًا. وليس كل من عرف الطريق كان أمينًا عليه. بعض

الأصدقاء كالعباءة الثقيلة على الجسد المُرهق. وجودهم لا يُشبه العون، بل يُشبه الحِمل الذي يُبطئ الخطى، ويُرهق الفكر، ويُشوّش البصيرة.

من لا يفرح لفرحك، ولا يحزن لحزنك، لا يستحق اسم "الصديق". ومن لا يحمي ظهرك في الغياب، لا يصلح أن يُشاركك الحضور. من لم يَزِدْك في الدين و الخلق، فقد أنقصك من الطمأنينة والعُمر الكثير.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾

(الكهف: 28)

الأصدقاء الحقيقيون هم الذين يكونون

مع الله

وفي الله

ومن الله.

وجودهم يريح

وكلامهم يهدي، وصحبتهم تقوّي. ما سواهم، لا يُعدّ صداقة... بل عبء يُوجِب التخفّف منه، لا التعلّق به.

لا تخلط بين الصحبة وبين الاستغلال

ليست كل يدٍ تُمدّ عند الحاجة يد صديق، وليست كل ملامح مألوفة هي انعكاس للوفاء. فكم من علاقة وُلدت في ظلّ ما بدا صحبة، لكنها لم تكن إلا مخرجًا للاستغلال، وتسللًا خفيًا إلى ما في اليد، لا إلى ما في القلب.

الاستغلال لا يصرخ بصوته، بل يتسلّل بنعومة تشبه دفء العلاقات. يتخفّى في طيّات الحديث وفي الطلبات المتكرّرة، وفي غياب التقدير، وفي الحضور المتربّط بالمصلحة. يتغذّى على الطيبة ويتقوّى على التنازل، ولا يعرف التراجع ما دام الباب مفتوحًا والنية طاهرة.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

(البقرة: 204)

من الناس من يتزيّن بالكلام
ويتجمّل بالمواقف الظاهرة، لكنه في الداخل يحمل نوايا لا تشبه الصداقة، بل تشبه السوق. يرى العلاقة استثمارًا، لا عهدًا. يقترب حين يربح، ويبتعد حين يجفّ المورد. يعرف جيدًا متى يمدح، ومتى يُجامل لكنه لا يعرف كيف يكون صادقًا في محبّته، وفي نُبله، وفي حضوره.

الصحبة شيء، والاستغلال شيء آخر.
الصحبة تشبه الجدار الذي تستند إليه الروح. لا تنتظر مقابلًا، ولا تتربّص بالحاجة، ولا تُعيد لك المعروف على شكل فاتورة.

أما الاستغلال، فهو علاقة غير متكافئة، فيها طرف يعطي حتى يُستنزف، وطرف يأخذ حتى يُثقل، ولا ينوي التوقّف. قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾

(البقرة: 206)

لا يقبل النصيحة، ولا يرى في نفسه عيبًا، ولا في تصرّفاته تجاوزًا. يُبرّر الاستغلال بأنه احتياج، ويُقنّع الغايات بأنّها صداقات.

يطلب باسم القُرب، ويُحمّلك ما لا يحتمله العدل، ثمّ إن سُئل عن ردّ الجميل، تذرّع بالنسيان أو بالعُذر.

أو بالخذلان.

الصحبة الحقّة لا تُشعرك بالاستنزاف، بل بالسكينة. لا تُثقل كاهلك، بل تُهوّن الطريق.

أما تلك التي تُشبه العلاقة الأحادية في العطاء، فهي ليست صحبة، بل قيد خفيّ يجرّ صاحبه نحو الخيبة.

في القرآن، عُرفت الصحبة في أسمى صورها بالوفاء كما جاء في مدح أصحاب النبي:

﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

(الفتح: 29)

الرحمة لا تسير جنبًا إلى جنب مع الاستغلال. ولا تكون المودّة صادقة حين يُستغلّ فيها

الإحسان. وما كانت الصداقة يومًا وسيلة لتحقيق مكاسب شخصية، بل كانت عهدًا تُبنى عليه المعاني وتُصان فيه الأرواح.

الصحبة تُربّي، تنصح، تحتضن، وتحمي.

أما الاستغلال، فهو ابتسامة تتقن الخداع، وصوت لا يسمع إلا صدى مصلحته، ووجه لا يظهر إلا عند الجني، ويغيب عند الزرع.

ومن لم يُفرّق بين الصحبة والاستغلال، بات ضحية لعلاقات تُجفف النبض دون أن تترك أثرًا طيبًا، وبات جسدًا يُحمَل على ظهره أثقالٌ لا تُرى.

لكنها تقتل فيه الرغبة في الوثوق مرّةً أخرى.

من يغار من فرحك، لا يفرح بك

الفرح لا يُخفي نفسه. يخرج من القلب كما يخرج النور من كفٍّ مُشتعلة بحياة. لكنه حين يُرى بعينٍ ضيقة، يتحوّل إلى وخز في قلوبٍ لم تعرف الصفاء ولم تذق طعم الاكتفاء. تلك القلوب لا تحتفل بضحكتك، بل تُحصيها. لا تُصفّق لك، بل تُراقبك. تقيس الفارق بينك وبينها لا لتتطور، بل لتتألم... ثم تؤلم.

الغيرة ليست إعجابًا مكتومًا، ولا طموحًا صامتًا، بل هي رغبة بغيضة في أن لا يكون لك ما يبهجك، أن لا يتحقق لك ما سعيت إليه

أن تُطفأ شمعتك ليبقى الظلام عادلا بين الجميع.
ومن يغار من فرحك لا يحمل لك الخير، وإن تلثّم بالتهنئة، وإن تصنّع المباركة.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

(النساء: 54)

الحسدُ، تلك الغيرة السوداء، لا تأتي من البعيد فحسب، بل كثيرًا ما تنبت في الأقرب. لا تصدر من غرباء لا يعرفونك، بل من أولئك الذين يعرفونك جيّدًا، ويعرفون كم تعبت، لكنهم لا يحتملون رؤية الثمر.

ما أسوأ أن تضاء الروح بفرحةٍ نقية، فيأتي من يطفئها بنظرة متحقّظة، أو كلمة ملوّنة، أو صمتٍ لا يُشبه الصداقة. وما أمرّ من اكتشاف أن من ظننتهم يسكنون أفراحك، كانوا في الحقيقة يُعدّون أيامك التي لا تعنيهم إلا بقدر ما تشعرهم بالنقص.

قال تعالى:

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾

(آل عمران: 118)

من لا يُسرّ لسرورك، لا يستحق مكانًا في ضوءك.
ومن لا يُفرح بفرحك، لا يعرف شيئًا عن المحبّة الحقيقية

لأنها تفرح بغير مقابل، وتزهو بما يسعد الآخر وتغتني برؤية الآخر سعيدًا دون أن ينعكس ذلك على رصيد المصلحة.

الفرح الحقيقي لا يُشارك من باب المجاملة، بل من باب المشاركة القلبية.

أما من يجلس في زاوية الابتسامة الباهتة، ويُخفي قلبًا متوجّسًا، فإنّه لا ينتظر لك خيرًا، بل يتمنّى، في سرّه، أن يتعثّر ذلك الذي أطربك، وأن يبرد ذاك الذي أشعل حماسك.

القلوب النقيّة تفرحها أنباء الخير، حتى وإن لم تكن هي المعنيّة. أما القلوب المريضة، فإنها تُخفي السهام خلف العيون، وتلبس وجوه المسرّين، وفي داخلها وجع لا يعرف إلا التلصّص على نجاحات غيرها.

الفرح لا يُقاس بعدده ولا حجمه، بل بمن يفرح له. وفي محيط لا يعرف قيمة الفرح، تتحوّل النعمة إلى عبء، ويصبح البوح بها خطرًا، وتتحوّل الإنجازات إلى همسات في العتمة.قال تعالى:

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء: 89)

لا يريدون أن يُدركوا ما فاتهم. بل يريدون أن لا تدركه أنت.

تلك هي المعادلة القاسية التي تكشف من لا يريد الخير إلا لنفسه، ويرى في كل ضحكةٍ من غيره تهديدًا لما يظنه مكانته، ومنافسةً لما يظنه تفوّقًا.من يغار من فرحك، لا يفرح بك... بل ينتظر لحظةَ غيابك عن الساحة ليُعيد ترتيب المشهد دونك.

الصداقة لا تعني أن تكون متاحًا دائمًا

الصداقة لا تقاس بكمية الوقت الذي تقضيه مع الآخر ولا بعدد المكالمات التي تجريها، ولا بعدد الرسائل التي ترسلها. الصداقة لا تعني أن تكون متاحًا دائمًا لتكون جسدًا حاضرًا في كل لحظة، أو صوتًا يصل إلى الآخر في كل حين. في الواقع، الصداقة الحقيقية تتسع لك ولغيرك، للوقت وللراحة، للمسافة واللقاء

ليس من الضروري أن تكون دومًا في المتناول لتظل صديقًا، بل من الضروري أن تكون موجودًا عندما تحتاجك القلوب، ثابتًا حين يزداد الفراغ.

قال الله تعالى:

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

(الأحزاب: 35)

في الصداقة، لا بد من مساحة خاصة بين الأصدقاء مسافة تمنح كل طرف القدرة على التنفس، على التأمل، على تجديد الذات. تلك المسافة لا تعني القطيعة، بل تمنح كل طرف لحظات من السكون و الصفاء، بعيدًا عن الضغط الاجتماعي أو العبء العاطفي الذي قد يُثقل العلاقة. من يظن أن الصداقة الحقيقية تعني التواجد المستمر، لا يدرك أن التواصل الحقيقي يحتاج إلى فترات من الابتعاد، فالفترات التي لا نكون فيها مع الآخرين، هي التي تعيدنا إلى أنفسنا وتجعلنا قادرين على العطاء الحقيقي عندما نلتقي.

الآية الكريمة تؤكد أهمية الصبر والقدرة على الحفاظ على العلاقة، حتى في أصعب اللحظات، ولكنها لا تفرض علينا أن نكون متاحين طوال الوقت، فهي لا تتطلب أن نكون مع كل من نحب في كل وقت. بل تضع شرطًا آخر، هو أن نكون موجودين في اللحظات الحاسمة، حينما يكون الآخرون في حاجة إليك

فالصداقة لا تعني التواجد الجسدي
المستمر، بل التواجد الفعّال في اللحظات التي تشكّل قيمة العلاقة.قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف: 4)

وهكذا، تكون الصداقة في أسمى معانيها، هي التي ترتكز على قيم الصدق والتفاهم. ليس المهم أن تكون موجودًا بجسدك فقط، بل أن تكون حقيقيًا صادقًا في مشاعرك، وعلى استعداد دائمًا للمشاركة الحقيقية في اللحظات التي تحدّد مكانتك في قلب الآخر. إن صداقة تكون في الطلب الدائم، في التوقع المستمر، في كونك على أهبة الاستعداد دون استراحة، تصبح أكثر من مجرد علاقة صادقة، تصبح عبئًا ثقيلًا على كاهليك، وتستنزف فيك روحك.

أما عندما توازن بين ذاتك وحاجات الآخرين، وتعرف متى تكون حاضرًا ومتى تكون غائبًا، تكون الصداقة قد نضجت وأصبحت علاقة حقيقية تؤتي ثمارها. لذا فإن غيابك أحيانًا لا يعني غيابًا عن القلب، بل يعني أنك تحترم نفسك، تحترم حاجتك إلى الراحة

قال الله تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: 114)

العلم الذي يشمل الإنسان ليس فقط المعرفة، بل فهم نفسه وحاجاته. فمن يغمره العمل الاجتماعي، ولا يجد الوقت لأخذ نفس عميق، لا يمكنه أن يكون صديقًا حقيقيًا كما يُتوقع منه. يحتاج الصديق أن يتعلم كيف يمنح نفسه الوقت لتجديد طاقاته، ليعود بعد ذلك إلى معارفه وأصدقائه بروح جديدة وقلب ممتلئ بالعطاء.

وفي النهاية، تبقى الصداقة التي لا تُبنى على التواجد المستمر، بل على الفهم المتبادل والاحترام المتبادل. فليس كل غياب يعني قطيعة وليس كل وجود يعني تواصلا حقيقيًا. الصداقة تحتاج إلى توازن، وإلى لحظات من التوقف والهدوء لتستمر في العطاء.

ليس كلُّ من يجمعك به الدم، يجمعك به الحنان

الدم قد يربط بين الناس، لكن الحنان هو الذي ينسج العلاقات الحقيقية.

في عالم حيث يعتقد الكثيرون أن القرب الجسدي يشير إلى القرب العاطفي، نجد أن الحياة أثبتت عكس ذلك.

فلا يكفي أن تكون القرابة
حاضرة في الأنساب والدماء، بل يجب أن يكون القلب حاضرًا في كل لحظة، مملوءًا بالحب والرحمة.
فالحب لا يأتي فقط من مجرد النسب، بل من التصرفات الصادقة، من العطاء، من الكلمة الطيبة، من الاهتمام الذي لا يشترى.

قال الله تعالى:

{وَقَضى رَبُّكَ أَلا تَعبُدوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا إِمّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَو كِلاهُما فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ وَلا تَنهَرهُما وَقُل لَهُما قَولًا كَريمًا}(الإسراء: 23)

في الآية الكريمة، يأمرنا الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين حتى وإن كانا في مرحلة الشيخوخة.

هذا الإحسان لا يرتبط فقط بالدم

بل يرتبط بمشاعر صادقة تحترم كرامة الإنسان. يشير الله تعالى إلى أن المعاملة الطيبة لا تتوقف عند الوجود الجسدي، بل هي تعبير عن الحنان والاحترام حتى عندما يصبح الشخص في حاجة إلى من يعتني به. فالإحسان يرتبط دائمًا بالنبل الأخلاقي.

ولكن، كيف يختلف الأمر عندما يكون الدم وحده هو الرابط؟ عندما تجمعك القرابة فقط، دون أن يكون بينكما من الحنان ما يعين على الاستمرار في علاقة حقيقية، فإن الأوقات الصعبة ستكشف عن هشاشة هذا الرابط.

فلا يكفي أن تكون هناك أواصر دموية لتدوم العلاقة بل يجب أن تكون هناك مشاعر نبيلة تسير جنبًا إلى جنب مع القرابة.

إذا لم يكن هناك اهتمام حقيقي فإن العلاقة ستظل خاوية، صلبة ولكنها باردة.

قال الله تعالى:

﴿يُحِبُّونَ مَن يُؤْمِنُونَ أَشَدّ حُبًّا لِلّهِ وَيُحِبُّونَ مَن يُؤْمِنُونَ أَشَدّ حُبًّا لِلّهِ وَيُحِبُّونَ أَشَدّ حُبًّا لِلّهِ وَيُحِبُّونَ مَن يُؤْمِنُونَ أَشَدّ حُبًّا لِلّهِ وَيُحِبُّونَ مَن يُؤْمِنُونَ أَشَدّ حُبًّا لِلّهِ وَيُحِبُّونَ مَن يُؤْمِنُونَ﴾(آل عمران: 31)

في هذا السياق، نجد أن الله تعالى ذكر في كتابه العزيز علاقة المؤمنين بعضهم ببعض. هنا لا يتحدث الله عن القرابة الدموية، بل عن الحب المتبادل بين من جمعهم الإيمان. الحب لا يحتاج إلى رابطة دم بل إلى رابط داخلي من الرحمة والمودة.

فالحب الحقيقي هو الذي ينشأ من القلب، بعيدًا عن المعايير الجسدية أو الوراثية. العلاقة التي تبنى على الإيمان والمشاعر الطيبة تتفوق دائمًا على تلك التي تقوم فقط على روابط الدم.

الدم وحده لا يجعل من علاقةٍ ما علاقة مثالية. فليس كل من يشترك معك في القرابة يحمل لك مشاعر حقيقية من الحنان والرعاية.

قد يكون هناك شخص في عائلتك قريب منك دمًا لكنه بعيد عنك قلبًا، وربما تجد في الأصدقاء من يمنحك من حنانه ما يفوق بكثير من البعض الذي يجمعك بهم نسب الدم. إذن، العبرة ليست في النسب بل في العمق الذي تحمله العلاقة في جوهرها.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان: 15)

الله سبحانه وتعالى يبيّن في هذه الآية أن الواجب هو إتباع الحق، حتى وإن كان ذلك يتعارض مع رغبات الوالدين. هذا يسلط الضوء على أن العلاقات يجب أن تبنى على المبادئ الصحيحة، وليست على الدم فقط. فإذا كان هناك من يتوقع منك الولاء لمجرد أنك مرتبط به برباط الدم، ويطالبك بالتنازل عن مبادئك، فهذا ليس من الحنان في شيء. إذن الحب والحنان لا يتوقفان عند الأصول العائلية، بل يتعلقان بالاستقامة، بالمبادئ، والمواقف التي تدافع عن الحق.

لذلك

لا يمكن الاعتماد على روابط الدم وحدها لبناء علاقاتٍ قوية وصحية. هذه الروابط قد تكون مجرد بداية، ولكن الاستمرار في تعزيز العلاقة يتطلب عنايةً بالروح والمشاعر، ويتطلب أن يكون الحنان متبادلًا، لا أن يكون مجرد كلمة تقال، بل فعلًا يُعاش.

الأسرة تُربّي... لكن بعض البيوت تُطفئ

الأسرة هي البذرة الأولى التي تُزرع فيها القيم والمبادئ.

حيث تتشكل في رحمها الشخصيات وتُصقل العقول. لكن، هل كل بيت قادر على أن يكون حاضنًا لتلك القيم؟ هل كل جدار في منزل قادر على إضاءة دروب الأمل والإيمان في النفوس؟

لا شك أن الأسرة هي منبع التربية الأول، ولكن الحقيقة أن بعض البيوت قد تتحول إلى ظلال قاسية، تمحي الضياء بدلًا من أن تنشره.

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

"وَقَضى رَبُّكَ أَلا تعبُدوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالوالِدَين إِحسانًا إِمّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَو كِلاهُما فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ وَلا تَنهَرهُما وَقُل لَهُما قَولًا كَريمًا" (الإسراء: 23)

هذه الآية تبيّن لنا الجوانب الأساسية التي يجب أن تميز أي علاقة داخل الأسرة، لا سيما العلاقة مع الوالدين. الإحسان إليهما ليس مجرد أمر، بل هو تكليف من الله تعالى. في قلب الأسرة يجب أن تسود قيم الاحترام والمحبة والعناية

وليس العنف أو الإهمال. فالأسرة التي تسعى لبناء الفرد بشكل سليم يجب أن تكون بيئة آمنة ومشجعة تضيء طريق أبنائها ولا تخنقهم في ظلمات الإهمال.

لكن، هناك بيوت تُطفئ أكثر مما تُنير. قد تجد أطفالًا نشؤوا في منازل تفشل في إعطاءهم الدفء العاطفي، أو ربما في توفير الدعم المعنوي والنفسي. وتزداد الأمور تعقيدًا حينما يُكتشف أن هذه البيوت لا تتسم بالكلمات الطيبة، ولا بالمعاملة الحسنة، بل

بالكلمات الجارحة، والتصرفات المدمرة. لا يكفي أن يُقال أن الأسرة تربي، بل يجب أن يتم ذلك من خلال الاهتمام والمشاعر الصادقة، لا عبر إلقاء الأوامر أو الهجوم اللفظي.

قال الله تعالى:

"وَقُل رَبِّ أجِرني وَأجِرْ أهلِي مِمّا يَفعلونَ"

(الصافات: 100)

هذه الآية تبرز أهمية الدعاء واللجوء إلى الله لحماية الأسرة من الفتن، وتوجيه تلك الحماية نحو تربية جيدة. لكن الواقع يكشف عن أن بعض البيوت تُشعر أفرادها بأنهم محاصرون داخل جدران فارغة، لا تحتوي على الدفء الذي يحتاجونه. بل بالعكس تصبح هذه الجدران سجونًا، تستنزف طاقتهم وتطفئ شعلة أحلامهم وطموحاتهم.

من المؤسف أن بعض البيوت تصبح مكانًا للكبت سواء كان ذلك من خلال إهمال مشاعر الأبناء، أو من خلال التقليل من شأنهم وكلماتهم. فهناك بيوت يُطفأ فيها نور الفكر، وتسلب فيها القدرة على التعبير بحرية. قد نسمع أحيانًا من الأطفال الذين عاشوا في بيئات غير صحية، أنهم يعانون من شعور بالضياع، لا يعرفون إلى أين يتجهون أو كيف يواجهون تحديات الحياة. يعود ذلك إلى أن الأسرة، التي يفترض أن تكون مكانًا للسلام والتوجيه، قد تحولت إلى مصدر رئيسي للضغوط النفسية والاجتماعية.

قال الله تعالى:

"وَقَضى رَبُّكَ أَلا تَعبُدوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا" (الإسراء: 23)

ما أروع قوله تعالى: "بالوالدين إحسانًا". فهو يذكرنا بأن الإحسان لا يتوقف عند مجرد توفير الأساسيات المادية لأفراد الأسرة

بل يتعدى ذلك إلى تربية النفس، إلى تعليم كيف يمكن للإنسان أن يحب وأن يعتني.

التربية التي تغذي العقل، وترتقي بالروح، هي التي تجسد معنى الإحسان بحق.

أما عندما تصبح بعض البيوت مكانًا للفراغ العاطفي فهذه هي البيوت التي تُطفئ نور الحياة في الأفراد حيث لا يجدون فيها دفئًا أو تشجيعًا.

يصبح هؤلاء الأبناء في مواجهة مع الحياة دون أن يمتلكوا القوة الداخلية التي تجعلهم قادرين على العيش بسلام داخلي.

حيث لا يُشبعون عاطفيًا ولا يُوجهون أخلاقيًا، وتبدأ جدران تلك البيوت في البر

إن الأسرة، كما هو معلوم، هي أساس التنشئة السليمة للإنسان.

وعلى الرغم من أن بعض البيوت قد تطفئ بعضًا من هذا الضوء، إلا أن النور الحقيقي لا ينطفئ بوجود الله.

فلا بد من وجود من يشعل هذا النور في تلك البيوت من خلال كسر دائرة الصمت والكلمات الجارحة وإعادة الروح إلى جدران الأسرة.

حين تتحوّل النصيحة العائلية إلى تحكّم
اقطع الحبل

في عالم العلاقات الأسرية، تُعتبر النصيحة السليمة و التوجيه الحكيم من أقوى الأدوات التي تقود الإنسان نحو النجاح والتوازن. ولكن، ما إن تتجاوز النصيحة الحدود المعقولة وتتحول إلى شكل من أشكال التحكّم والفرض، يصبح تأثيرها مضرًا، بل قد يتحول من مساعدة إلى عبء. في تلك اللحظة، يجب أن تُفكك الحبل الذي كان يربطك بتلك النصيحة وتوقفها، مهما كانت الأسماء أو العلاقات القريبة التي تندرج تحتها.

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

"وَقَدْ فَصَّلْنَا لَكُمْ فِيهِ مَا تَذَكَّرُونَ" (الأنعام: 111)

هذه الآية تؤكد أن الله قد أرسل لنا ما يكفينا من الهداية والرشاد، وليس من حق أحد أن يفرض علينا طريقًا أو يحدّ من خياراتنا في الحياة. النصيحة يجب أن تكون مفتوحة للمراجعة، وتحترم في النهاية حق الفرد في اتخاذ قراراته الخاصة.

إن النصيحة في جوهرها هي أمر من القلب إلى القلب، ودافعها الأساسي هو الرغبة في الخير. ولكن حين تبدأ النصيحة العائلية في التحول إلى تحكّم يصبح من الصعب على الفرد أن يشعر بالراحة و الحرية في اتخاذ قراراته الخاصة. وعندما يُصير المحيطون بنا أنفسهم مرشدين قسريين، فإننا نفقد ذلك التوازن الذي يساعدنا على أن نكون منطلقين بثقة في حياتنا.

يصبح الواحد منا في حالة من الارتباك، بين رغباته الشخصية وبين توقعات من حوله.

قال الله تعالى:

"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"

(آل عمران: 105)

هذه الآية تشير إلى التفرقة والاختلاف بسبب عدم وضوح الرؤية وعدم احترام حقوق الآخرين.

في كثير من الأحيان تتحول
النصائح العائلية إلى محاولات لفرض وجهات نظر محددة على الأفراد، وهو ما يؤدي إلى الاختلاف وعدم الاستقرار في العلاقات.

الأسرة هي المكان الذي يُفترض أن يُبنى فيه الفرد على أسس من الحب والرعاية، ولكن حين يصبح أفراد الأسرة غير قادرين على فصل النصيحة عن التحكّم، تبدأ العلاقات في التآكل. في البداية، قد يكون التحكّم غير واضح، وقد يتم تغطيته تحت غطاء "المصلحة".

لكن سرعان ما يصبح واضحًا أن الأمر ليس سوى محاولة لتوجيه الحياة الشخصية للآخرين وفقًا لتصورات محددة.

تتحول النصيحة العائلية إلى عبء حين تُفرَض بشكل مستمر، دون منح المجال للآخرين لاتخاذ قراراتهم بأنفسهم. في هذه الحالة، يصبح الفرد مجرد تابع لما يراه الآخرون مناسبًا له، مما يؤدي إلى فقدان هوية الشخص وإرادته.

تصبح الحياة رحلة قسرية ليس لها علاقة بما يتمنى الفرد أن يكون.

قال الله تعالى:

"وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ"

(الإنسان: 30)

الله وحده هو من يملك القرار في تحديد مصير كل إنسان، ومن غير المعقول أن يتدخل البشر في مسارات حياة الآخرين بشكل مبالغ فيه. على الرغم من حبنا لرؤية من نحبهم يتخذون قرارات تسرُّنا.

إلا أن الله عزّ وجلّ قد بيّن أن إرادتنا في النهاية هي جزء من مشيئته، وكل فرد هو من يقرر مسار حياته شريطة أن يكون ذلك في حدود ما يرضي الله تعالى.

عندما تشعر بأن النصيحة قد تحولت إلى تحكّم يصبح الوقت قد حان لقطع الحبل. ليس بالضرورة أن تكون هذه القطع ماديًا، بل على مستوى الروح و القرار. يُظهر الله عزّ وجلّ في القرآن كيف أن الالتزام بالحرية الشخصية هو جزء من كرامة الإنسان:

"فَمَن يَشَاءُ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن يَشَاءُ فَلْيَكْفُرْ" (الكهف: 29)

هذه الآية تذكرنا بأن الإيمان هو خيار شخصي لا يمكن فرضه على أحد، وبالتالي لا يجوز لنا فرض قرارات الحياة على الآخرين سواء كان ذلك من خلال نصيحة أو أي نوع آخر من التدخل.

إن قطع الحبل في هذه الحالات لا يعني الانفصال عن الأسرة أو عن محبة الآخرين، بل يعني التحرر من القيود التي قد تكبل الشخص وتمنعه من اتخاذ قراراته بحرية تامة. هو عملية إعادة التوازن بين محبتك لأسرتك واحترامك لقراراتك الشخصية.

إن الاحترام المتبادل بين الأفراد داخل الأسرة لا يجب أن يُقاس بما تفرضه كل طرف من النصائح، بل بما يقدره الآخرون من احترام لإرادة الفرد.

قال تعالى:

"وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"

(البقرة: 83)

كما أن النصيحة يجب أن تكون مبنية على الاحترام والحسنى، كذلك يجب أن يكون تفاعلنا مع الآخرين قائمًا على احترام حقوقهم في اتخاذ قراراتهم الخاصة.

الأقارب لا يُقاسون بالمكانة، بل بالدعم

الدم هو الرابط الذي يربط بين الناس في أكثر صوره وضوحًا، ولكنه لا يحدد نوع العلاقة ولا يضمن عمقها. كثيرًا ما يُساء فهم مفهوم القرب في العلاقات العائلية، ويعتقد البعض أن صلة القرابة تكفي لأن تكون دليلا ً على الدعم والوفاء. لكن الحقيقة أن المكانة العائلية وحدها ليست مقياسًا لصدق المشاعر أو قوة العلاقة.

بل الدعم والتعاطف هما ما يميز الأشخاص الذين يستحقون أن تُعتبر صلتهم قوية ومؤثرة في حياتنا.

قال الله تعالى في القرآن الكريم:

"وَأَنْتُمْ لَا تحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"

(النور: 22)

هذه الآية تشير إلى أن التمسك بالدعم المتبادل بين أفراد المجتمع أو الأسرة يُعتبر عنصرًا أساسيًا في الحياة الطيبة. الله سبحانه وتعالى يعبر عن أهمية العفو والمغفرة، وهما من أشكال الدعم التي يجب أن تتوافر بين الأقارب.

إن الفهم الخاطئ للمكانة العائلية قد يؤدي إلى تراجع حقيقي في العلاقات الأسرية. البعض يظن أن كون الشخص قريبًا بالدم يعني أنه سيقدم الدعم عندما تحتاج إليه، ولكن لا شيء يضمن ذلك. فالدعم ليس مجرد واجب يؤديه الفرد لمجرد أنه قريب، بل هو التزام نابع من الحب والاحترام المتبادل. وفي الكثير من الأحيان، نجد أن أولئك الذين يتقاسمون معنا نفس الجينات، قد لا يكونون الأكثر وفاءً في وقت الشدائد.

قال الله تعالى:

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بَعْدُهُمْ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"

(آل عمران: 169)

الآية تبيّن أن القيمة ليست في المظهر أو المكانة أو حتى في الدم وحده، بل في العطاء والإيمان والعمل الصالح. في الأسرة، لا تكمن القوة في مجرد التواجد البيولوجي، بل في القدرة على منح الدعم الحقيقي في الأوقات الصعبة.

حينما نبحث عن الدعم، لا يكفي أن نكون محاطين
بأشخاص يرتبطون بنا بالدم. كثيرًا ما تأتي الحياة
بما هو غير متوقع، فقد تجد من كان بعيدًا عنك في
البداية يقف معك أكثر من الذين يتشاركون معك
نفس الجذور. في واقع الحياة، الدعم يتطلب أن
يكون الشخص مستعدًا للبذل والتضحية، سواء كان
هذا الشخص قريبًا أو بعيدًا.

قال الله تعالى:

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" (الحجرات: 10)

هذه الآية تبرز أن الصلة بين المؤمنين سواء كانوا من الأقارب أو غيرهم هي علاقة أخوة حقيقية مبنية على دعم متبادل واحترام.

قد لا يكون الرابط العائلي هو المعيار الأهم في العلاقة، بل الحقيقة أن الإيمان والتعاون في الخير هو ما يربط بين الأشخاص.

الكثيرون يكتشفون في وقت لاحق من حياتهم أن الأقارب، رغم أنهم يشتركون معهم في الكثير من الذكريات والتاريخ

قد لا يكونون الأكثر استعدادًا لمساعدتهم عندما يتعلق الأمر بمواقف حاسمة.

بالمقابل، قد تجد الأصدقاء الذين لا يرتبطون بك بدم يقدمون لك ما لا يقدمه أقرب الناس إليك.

قال الله تعالى:

"فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"

(الزخرف: 84)

الآية تذكرنا بأن القوة الحقيقية ليست في المكانة أو المرتبة في الحياة، بل في التقوى والنية الطيبة. ما يهم في نهاية المطاف هو الدعم الذي يقدمه الشخص بصدق، ليس وفقًا للمكانة أو العنوان، بل بناءً على النية الطيبة والعمل الصادق

إن المكانة العائلية قد تمنحنا في البداية شعورًا بالأمان، ولكنها لا تكفل لنا أبدًا الدعم الفعلي الذي نحتاجه في الأوقات الصعبة. فالدعم الحقيقي هو الذي يأتي من القلب، وهو الذي يتجاوز أي علاقة قائمة على الروابط البيولوجية أو الاجتماعية. إن الدعم ليس مجرد كلام، بل هو أفعال حقيقية تظهر الفهم والاهتمام.

قال الله تعالى:

"يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا"(البقرة: 269)

الحكمة تأتي من فهم مشاعر الآخرين ورغباتهم وأحيانًا تكون تلك الحكمة هي ما يجعل الدعم يبرز بشكل أكبر، ليس بناءً على علاقة دموية أو مكانة عائلية. بل بناءا على الإدراك العميق لما يحتاجه الآخرون

يجب أن يكون الدعم الأسري والعائلي في النهاية نابعًا من النية الصافية، وليس من مجرد الاعتبارات الشكلية أو الاجتماعية. إن الأشخاص الذين يقدمون لنا الدعم هم الذين يهتمون بنا بصدق، سواء كانوا قريبين أو بعيدين.

ليس من البرّ أن تخرس قلبك لتُرضيهم

السكوتُ حين يصرخ القلب، ليس حكمة، وليس أدبًا وليس طاعة. إنه خيانة صامتة لنفسٍ خلقها الله لتكون كريمةً، متّزنة، لا عبئًا يُساق إلى ركنٍ بارد من الحياة.

كم من وجوهٍ تلتحف الصمت خوفًا من كسر قوالب رسمها غيرهم، يلبسون الأقنعة اليومية لا لأنهم يجهلون حقيقتهم، بل لأنهم أُجبروا على خنقها حتى لا يُغضبوا "هم". "هم" الذين ظنوا أنفسهم ميزان الخير، ومصدر البرّ، وحدود القبول.

قال سبحانه:

"لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..." (البقرة: 177)

البرّ إذًا ليس في المظاهر، ولا في
التنازلات القسرية ولا في أن يُذبح القلب على مذبح رضا الآخرين. البرّ هو الإيمان، والصبر، والصدق، و الوقوف في الحق حتى وإن بدا صوته نشازًا وسط جوقة المجاملة الزائفة.

كثيرون يسكتون عن حاجاتهم، عن أحلامهم
عن آلامهم، لأنهم أُقنعوا أن الكلام "عقوق".

وأن الاعتراض "تمرُّد"، وأن قول الحقيقة
"قساوة". فكم من حياةٍ تآكلت تحت شعار "الصمت
حكمة"، بينما الحقيقة أن الصمت أحيانًا خيانة، ليس
للغير، بل للذات. والذات أمانة، ومن يقتلها ليرضي
الناس، فقد خان الأمانة.

قال تعالى:

"وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى"(الأنعام: 152)

العدل ليس في إرضاء القريب إن كان في إرضائه ظلم للنفس، بل العدل أن يُقال الحقّ، ويُصان الضمير ولو كلّف ذلك نظرة لومٍ من القريب أو تأنيبًا ممن اعتاد أن يكون فوق المحاسبة.

المساومة على صوت القلب ليست من البرّ، إنها انتحار بطيء للشخصية، ومسحٌ لهويةٍ خُلقت لتكون ذات ملامح، لا ظلًا لغيرها.

فمن ظن أن التضحية بالنفس كاملةً من أجل "السلام " هو خلق رفيع، فقد تجاهل أن السلام الحقيقي لا يأتي من الانكسار، بل من التوازن.وما دام اللّٰه قد خلق القلوب ناطقة، فما الذي يجعل إسكاتها طاعة؟

قال عزّ من قائل:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ، وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ"(النساء: 135)

الشهادة بالحق والقيام بالقسط لا تعني مواجهة الأعداء فقط، بل تعني مواجهة كل ما يطمس الحق حتى وإن كان قادمًا من أقرب الناس. فكم من كلمةٍ أُخفيت باسم "البرّ"، فكانت مَفسدةً، لا إصلاحًا.

إن البرّ لا يعني الانسحاق، ولا الرضوخ لكل ما يُطلب. البرّ لا يصنع من الإنسان بوقًا لغيره، ولا ظلًا لما يريده الآخرون. البرّ في أن يكون المرء حرًا في الحق صادقًا مع نفسه، ثابتًا في كرامته، مُكرمًا في اختياره لا تابعًا يُنزع منه صوته كلما قال: "أنا لا أريد".

في النهاية

ليس من البرّ أن يُخرس القلب لتُرضى الأوهام. لأن من سعى لإرضاء الناس بإسكات ما خلقه الله فيه من نور وفطرة، لن يرضيهم، ولن يرضى هو عن نفسه.

فالبرّ لا يُولد من الخنوع، بل من الشجاعة والنقاء

بعض الإخوة لا يُشبهون الرحِم، بل يُشبهون الغُرباء

ليس كل من خرج من ذات الرحم، يحمل ذات الشعور. فثمة من يتقاسم الجينات، لكنه لا يتقاسم العاطفة . يمرّ بجوارك كما يمرّ الغريب، بوجهٍ بارد بصمتٍ كثيف، لا يسمع نبضك ولا يُدرك ألمك، وكأن الرحم الذي جمع الجسدين، لم يكن يومًا جسرا للقلوب .

الرحم لا تُقدّس إلا إذا رُويت بماء الرحمة. أما إذا جفّت، وانقطعت عنها حرارة المودة، فإنها لا تُنبت إلا الحطب. قد يمر الزمن، وتُكتشف أن من كنت تحسبه سندًا من لحمك ودمك، لا يختلف عن من قابلته على عتبة الحياة صدفة... أو ربما هو أشد غرابةً، لأنه عرفك ثم اختار ألّا يعرفك.

قال الله تعالى:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ"

(البقرة: 206)

فما أسوأ أن يتحوّل الأخ إلى ناصب للخصومة، إلى من لا يلين لصوت النصح، ولا يخجل من قطيعة الرحم. يدير ظهره لا لأنك أخطأت، بل لأنه لا يرى فيك قيمة تستحق البقاء. الدم وحده لا يكفي، ما لم يُصبَغ بالمروءة والوفاء.

لأن اللّه سبحانه لم يُقرّ الرحم إلا مقرونة بالصلة وأمر ببرّها مقرونًا بالإحسان. قال تعالى: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ..."(النساء: 36) فما الجدوى من قرابة تُذكر في الأوراق، وتمحى في الأفعال؟

الغربة الحقيقية لا تبدأ حين تبتعد المسافات، بل حين يصبح الأخ في جوارك غريب الروح، بعيد السند لا يُسندك حين تميل، ولا يُدافع عنك حين يُغتاب اسمك، ولا يفرح لك إلا إذا كنت دونه. وكلما نظرت إليه، تذكّرت أن الرحم لا تعني شيئًا إذا لم تسكنها النخوة.

ثمّة إخوة يُشبهون الغُرباء ليس لأنهم وُلدوا غرباء بل لأنهم اختاروا البرود آثروا الصمت حين كان الكلام واجبًا، وأداروا وجوههم حين كان الحضور فرضًا.

لكن الله العدل، لم يترك للقربى مجالًا لأن تكون مطيّةً للخذلان. بل قال جلّ جلاله:

"قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ..."(التوبة: 24)

فإذا فسدوا، لا يُتّبعون، وإذا جاروا، لا يُبرّر لهم، وإذا أصبحوا أعداءً في ثياب الأقارب، فلا مكان لهم في زمرة الصالحين.

الرحم تاج، نعم، لكنها لا تلمع إلا إن كانت
محمولة على رؤوس تستحقها. أما من جعلها سيفًا
للعتاب، أو جدارًا للنفور، فإنه قد أهانها قبل أن يهين
غيره. وكم من أخٍ لم يُشبه الرحم، لأنه اختار أن
يشبه البُعد ويُجيد دور الغريب دون عذر، دون حاجة
دون سبب يُغتفر.

تلك ليست أخوة، بل قشور تساقطت مع
أول ريح من صدق.

كُن كريمًا مع أهلك، لكن لا تكن غبيًا

الكرم شرفٌ لا يُشترى، وعِزّة لا تُفرض. أن تُعطي بطيب نفس، أن تفتح بابك بوجه السرور، أن تُنفق على أهلك فتشعر بالعزّ لا بالمنّة، فذلك دأب الكرام ونهج النبلاء. لكن حين يتحوّل الكرم إلى سذاجة، و التسامح إلى استغلال، تُولد غفلة تُلبّس ثوب الفضيلة وهي منها براء.

اليد المفتوحة ينبغي أن تحمل معها بصيرة، والنية الطيبة يجب أن يُلازمها فطن، لأن من الناس من لا يرى في عطائك معروفًا، بل يرى فيه واجبًا، ويقيس حجم قلبك بقدر ما ينهب منك، لا بقدر ما تبذل. فحين يُصبح الكرم عُرفًا يُفرض عليك، ويتحوّل العطاء إلى عبءٍ يُثقل كاهلك دون شكر أو حفظ فاعلم أن الغباء تسرّب إلى طيبة قلبك.

قال الله تعالى:

"وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا"

(الفرقان: 67)

فالقوامة في الإنفاق، ليست بخلًا ولا بخسًا، لكنها ميزان العقل حين يتوازن مع الكرم.

لأن البذل الأعمى قد يُفسد لا يُصلح، وقد يُنبت في القلوب جشعًا بدل المحبة وتمرّسًا على الأخذ بدل الشكر.

أحيانًا، يُصبح الأقربون أبرع من يُجيدون فنّ التمثيل على وتر "الحق"، ويضعون لك في طريق الإحسان فخًا من العتاب، فإن أعطيت سكتوا، وإن منعتك الحاجة قالوا: بخيل.

وإن اعتذرت بحجّتك اتهموك بالقطيعة، وكأن الحبل لا يُمسكه إلا طرفك وحدك، وكأن المودة عبءٌ لا يُشاركك فيه أحد.

لكن الله سبحانه يقول:"وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"(الإسراء: 29)

فبين الغلّ والبسط
طريق لا يسلكه إلا العاقل.طريق من يعرف أن الكرم لا يعني أن تُرهق ذاتك لتُرضي الآخرين، ولا أن تُفسد مالك أو راحتك لأن أحدهم صوّر لنفسه أنك مسؤول عن رفاهيته.الكرم الحقيقي لا يُهان بالتكلف، ولا يُذلّ بالتعوّد. والجميل أن تُحسن لمن حولك، لكن الأجمل أن تعرف أين ومتى وكيف. لأن أهل البيت وإن كانوا أولى الناس بالبر، فإنهم أيضًا أولى الناس بالفهم. ومن لا يفهم حدود عطائك، لا يستحقه.

فالغباء ليس في العطاء
بل في الاستمرار في عطاءٍ يُشجّع على الطمع، يُفسد العلاقات، ويُحوّل الأقربين إلى آكلي حقوقٍ متنكرين.
وعندها لا يحقّ لك أن تشتكي إلا من ضعفك، لأن اللّٰه أعطاك عقلًا، وحثّك على الاعتدال، وعلّمك أن الحكمة لا تنفصل عن المروءة.

قال تعالى:

"إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ" (الإسراء: 27)
فمن ذا الذي يرضى أن يُصنّف إخوةً للشياطين، وهم يظنون أنفسهم أكرم الناس وأفضلهم صنيعًا؟

إن الكرم فطرة، لكن حمايته فريضة. لأن من أهلك من لا يرحم حياءك، ولا يُقدّر نُبلك، ولا يراك إلا صرّافًا متحركًا، فإن لم تكن ذكيًا في عطائك، فقد صنعت بيدك مَن يجرحك لاحقًا باسم القرابة.

البرّ الحقيقي ليس في أن تُخرس صوت العقل، بل في أن توزّع الخير بعدل، وتحفظ هيبتك وأنت تعطي، لأن الكرم ليس فقط في اليد، بل في الحكمة التي تحرّكها.

كلمات عابرة... علّمتني أكثر من كتبٍ كثيرة

هي لا تطرق الأبواب، ولا تستأذن، ولا تحتاج إلى ورقٍ مجلّد أو حبرٍ فاخر، لكنها حين تأتي، تُحدث في الروح زلزالًا صامتًا. كلمات وُلدت في لحظة صفاء خرجت من أفواهٍ لا تدري أنها تُلقي دروسًا أعمق من صفحاتٍ خُطّت في الليالي. كلمات ربما نُسيت من قائلها، لكنها علقت في القلب، وانغرست في أعماق الوعي كأنها آيات كُتبت على الجدران.

لا تُقاس الحكمة بكثافة الأسطر، بل بمدى النفاذ إلى جوهر الإنسان. فكثير من الكتب تُحشى بالحروف لكنها لا تمسّ، لا توقظ، لا تُوجِع. أما تلك الكلمات التي تمرّ كأنها لا تعني شيئًا، فربما كانت هي الصاعقة التي أيقظت النائم، أو المِبضع الذي استأصل الوهْم.

قال الله تعالى:

"وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" (آل عمران: 48)

والحكمة ليست مجرد علم، بل نور، لا يُختزن فقط في مجلدات، بل قد ينبعث من جملةٍ سقطت عرضًا على مسمع، فتُبدّل مجرى تفكير، وتعيد ترتيب أولويات، وتشعل قناديل الإدراك في ممراتٍ كانت مظلمة.

بعض الكلمات كالسهم، لا يُخطئ قلب الذاكرة. تُقال مرة، لكنها تُردّد ألف مرة في الخفاء، تُجبر النفس على المراجعة، على الانحناء أحيانًا، وعلى القيام من جديد في أحيانٍ أخرى. قال تعالى:

"فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ"

(الأعلى: 9)

فالتذكرة ليست بوفرة الكلام، بل بتركيز السهم على الوتر الذي يُحرّك الروح.

إنها تلك الجملة الملقاة في ساحة مزدحمة من الأفكار لكنها الوحيدة التي صمدت أمام التيارات، لأنها صادقة، لأنها لم تقل لتُعجب، بل لتُوقظ. الجملة التي لا تحمل زخرف القول لكنها تحمل صدق الشعور، هي التي تصير مرجعًا داخليًا، تظهر عند الحيرة، وترافق الخطوات عند المفترقات.

الكتب تُعلّم قواعد، أما الكلمات العابرة فتُعلّم الحياة.
الكتب تُربّي الذهن، لكن تلك الكلمات تُربّي القلب.
ومن بين أعظم ما يُقال، ما يمرُّ كأنه لا يعني شيئًا
لكنه في الحقيقة يعني كلّ شيء.

قال الله سبحانه:

"إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ" (ق: 37)

فالقلب حين يكون حيًّا، لا يحتاج إلى المجلدات
ليبصر، بل تكفيه لمحة، يكفيه صوتٌ صادق، يكفيه
ظلُّ كلمة صدرت من حكيمٍ لا يقصد التعليم، بل
يعيش ما يقول.

وما الحياة إلا مدرسة، لا تُعلّم فقط من على المنابر بل تُعلّم في الأسواق، في العبارات القصيرة، في النُصح الذي يُقال على عجل، في الألم الذي يُنتج جملة خالية من التكلّف، لكنها مملوءة بالحقيقة.
وهكذا، تظل الكلمات العابرة شاهدةً على أن الأثر لا يُقاس بالكمّ، بل بالصدق. وأن الحكمة لا تحتاج إلى منصّة، بل إلى قلبٍ صادقٍ يُلقيها، وآخر يتلقّاها.

غريبٌ واساني يومًا... فبقيت كلمته ذكرى لا تموت

لم تكن ملامحه مألوفة، ولا صوته قد سبقته معرفة
لكنه في لحظةٍ ما كان أقرب من كل من ظنّوا القرب
رابط دم أو عهد. جاء صوته وسط ضجيج الانكسار
كأنّه نداءٌ أرسله القدر، كلمة واحدة فقط، لكنها زلزلت
الألم، ومسحت بعض العتمة، وجعلت الروح تُدرك أن
الله يُرسل بلسمه من حيث لا يُنتظر.

هناك من لا تجمعك به أرض، ولا يربطك به نسب لكنه يُلامس جرحك دون أن يعرف تفاصيله. يأتي في وقتٍ لا توقع فيه حضورًا، ثم يُغادر كأنه لم يكن، لكن أثره يبقى، وكلمته تصبح وردة خفية تواصل الإزهار كلما عبرت الذاكرة محطات التعب. إن الكلمة حين تنبع من الرحمة، تكون من النفس الذي نفخه اللّه في الإنسان، فتُحيي ما كان يظنّه البعض قد مات.

قال الله تعالى:

"وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"

(البقرة: 83)

فليست كل الكلمات تقال لتُسمع، بعضها يُقال لتُداوي. تلك التي تخرج من قلبٍ عابر لكنها تصل إلى قلبٍ منكسر، تعيد بناء شيء تهدّم، ترمم شقوقًا لا يُدرك عمقها إلا الله.

الغريب حين يُواسي بصدق، يُصبح شاهدًا على أن الخير لا جنسية له، ولا عنوان. هو شاهدٌ أن الإنسان في جوهره لا يحتاج لتاريخٍ طويل من العلاقات، بل إلى لحظة إنسانية صافية. لحظة واحدة قد تكون كافية لتُغيّر نظرة كاملة نحو الوجود، نحو الناس نحو الألم نفسه.

قال الله سبحانه:

"وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً" (الفرقان: 20)
وقد تكون الفتنة هنا بمعنى الاختبار، فبعض الغرباء يُرسلون اختبارًا للرحمة في قلبك، أو إحياءً للثقة في قلبك، أو تذكيرًا بأن العطاء ليس محصورًا بمن نعرف ، بل بمن يحمل النور في داخله.

وكم من غريب قال ما لم يقله قريب، وكم من كلمة في دقيقة تجاوزت في معناها وصدقها ما لم تعبر عنه كتب طويلة. ذلك لأن الصدق حين يتكلم، لا يحتاج إلى كثير شرح. قال الله تعالى:

"وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ" (الحج: 24)

فالطيب لا يُصنع، بل يُلهم، ولا يُصاغ كزخرفة، بل يُقال كنبض. وما لا يُنسى ليس طول العلاقة، بل عمق اللحظة. وما تبقى في الذاكرة ليس عدد الكلمات، بل وقعها. وهكذا، يبقى الغريب الذي واسى، حيًا في الذكرى، لأن كلمته لم تكن مجرد صوت... كانت حياة.

الطيبة المفرطة ليست فضيلة ... بل ضعف

حينما تفرط في منح الطيبة، تلتبس الأمور، ويبدأ العالم من حولنا في أخذ كل ما نقدمه لهم دون أي اعتبار لحدود أو حساب.

الطيبة تصبح في بعض الأحيان عبئًا ثقيلًا على النفس، لا تعتبر فضيلة

بل ضعفًا نعرض فيه أنفسنا للاستغلال
ويصبح العطاء دون قيود ليس قمة الفضيلة، بل بداية انكسار الروح.

الطيبة الحقيقية هي توازن بين القسوة واللين، بين القدرة على العطاء مع القدرة على فرض الحدود. لكن الطيبة المفرطة، التي لا تعرف توقفًا ولا تميزًا بين من يستحق ومن لا يستحق، تخلق فوضى. الفوضى التي تبدأ من داخل القلب، ثم تنتقل إلى العالم الخارجي، حيث يشعر الشخص الذي أهديت إليه الطيبة، أنها لم تكن إلا تهديدًا لراحته النفسية.

الله تعالى في كتابه الكريم قد بيّن أن الحياة تحتاج إلى توازن في التعامل مع الآخرين، ففي حين أنه يُحثّ على الرحمة والرفق، فإن هناك حدودًا يجب أن تُحترم.

يُمكن أن يتحوّل الشخص الطيب المفرط إلى شخص ضعيف إذا لم يستطع أن يضع تلك الحدود الواضحة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع من لا يقدرون قيمته.

قال تعالى :

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: 83)
هذه الآية تدعونا إلى التوجه بالكلام الطيب، ولكن دون أن نغرق في فخ الطيبة التي تفرط في منح نفسها لمن لا يستحق. النبل في التعامل لا يعني أن نتنازل عن أنفسنا أو نضحي بحقوقنا، بل يعني أن نكون منصفين في العطاء.

الطيبة، عندما تفرط فيها، تصبح نوعًا من الضعف الذي قد يُستغل من قبل الآخرين. هناك فرق بين أن تكون طيبًا، وبين أن تكون بلا حدود. يمكن للشخص الذي يتجاوز حدوده في العطاء أن يفقد احترامه لنفسه، وبالتالي يُفقد احترام الآخرين له. فهذا التوازن بين الرحمة والشدة هو ما يجعل الشخص متزنًا في معاملاته.

وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: 11)

الطيبة المفرطة تفتح بابًا واسعًا للفساد، حيث يعتقد البعض أنهم يمكنهم الاستفادة من الشخص الطيب دون أن يقدموا أي شيء في المقابل. هذه الطيبة التي تُعطى بلا حساب تصبح في النهاية عبئًا وتسبب انعدام توازن العلاقات.

العطاء لا يعني الاستسلام للآخرين دون أن يكون لديك القوة لتوجيههم، بل هو فعل يحتاج إلى تحديد الحدود.

الضعف الذي يتولد من الطيبة المفرطة ليس ضعفًا طبيعيًا، بل هو ضعف ناشئ عن إغفال الحق. إن الله سبحانه وتعالى يوجّهنا إلى أن نتعامل مع الناس بما يستحقونه، وألا ندع ضعفنا يتسلل إلينا حينما نكون طيبين بشكل مفرط.

وقد جاء في كتاب الله تعالى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: 38)

القرآن يدعونا إلى اتخاذ قراراتنا بعد المشاورة، ولا نكتفي فقط بالعطاء بدون النظر في العواقب. عندما نغمر أنفسنا بالعطاء المستمر دون تمييز، فإننا نُعرّض أنفسنا للظلم. الحقيقة هي أن الطيبة يجب أن تكون مدروسة، يُقدم منها ما هو مناسب، وتُرفع إذا كان العطاء يؤدي إلى ضعف أو استغلال.

قد تبدو الطيبة المفرطة كفضيلة في أعين البعض لكنها في واقع الأمر تشبه العطية التي لا تقدّر، التي تباع دون أي قيمة تذكر.

الطيبة التي تعطى لأشخاص لا يستحقونها لا تحمل أي قيمة حقيقية. بل على العكس، فإنها تسلب الشخص الطيب كرامته، وتجعله في نظر الآخرين شخصًا ضعيفًا.

﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

(النساء: 36)

الطيبة المفرطة ليست من صفات المختال الفخور بل من صفات من لا يعرفون قيمة أنفسهم، ومن لا يمتلكون القوة للوقوف ضد من يسعى لاستغلالهم. القوة تكمن في أن تعرف متى تُعطي ومتى تتوقف وتعلم أن الرحمة لا تعني التنازل عن حقوقك.

لا تُطيل البقاء في الأماكن التي لا تُقدّرك

في زحمة الحياة اليومية، يواجه الإنسان
العديد من الأماكن التي يقيم فيها، سواء كانت
أماكن عمل، أو علاقات، أو حتى مجتمعات صغيرة.
وفي بعض الأحيان، يجد نفسه محاطًا بأماكن
وأشخاص لا يعطونه ما يستحق من تقدير. تبقى
هناك تلك الأماكن التي تستهلك طاقته، وتقلل من
قيمته، وتستنزف جهده دون أن يشعر بأي تقدير لما
يقدمه. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا نبقى في
أماكن لا تقدرنا؟ هل هو حب للبقاء في الأماكن التي
تعرفها، أم خوف من التغيير؟

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعيش في بيئة تحترمه، ويجب أن يكون الشخص في مكان يشعر فيه بكرامته وأصالته. ولكن ماذا يحدث عندما يُحرم هذا الشخص من تقدير قيمته في المكان الذي يقيم فيه؟ ماذا يحدث عندما يشعر أنه يُستغل أو يُهمش؟ هل يجب أن يستمر في هذا الوضع أم ينبغي أن يقرر المغادرة؟ القرآن الكريم يوجهنا إلى التفكير في هذا الموضوع بعمق.

قال تعالى :

﴿وَإِذَا رَءَاهُمْ قَالُوٓا۟ هَٰٓؤُلَآءِ ضَلُّوا۟ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فَعَلُوا۟ وَٱتَّبِعُوا۟ سُبُلَ جَهَنَّمَ ۖ فَٱلْقَدَمَ (الأنعام: 141)

آية تظهر أن التمسك بالمكان الذي لا يعود بالنفع على الإنسان، بل يستهلكه ويسيء إليه، ليس هو القرار السليم. في مثل هذه البيئة، لا يمكن للإنسان أن يزدهر. البيئة التي تقلل من قيمته وتجعله يعيش في خوفٍ دائم أو في توتر مستمر، لا يمكن أن تكون مكانًا صحيًا أو مكانًا مناسبًا له.

الإنسان الذي يُحب نفسه ويقدّر قيمتها يجب عليه أن يتخذ قرارًا حاسمًا... أن يغادر تلك الأماكن التي لا تعطيه ما يستحق من احترام أو تقدير. ربما يبدو هذا القرار صعبًا في البداية، خاصة إذا كانت هناك علاقات أو ارتباطات قوية، لكن الاستمرار في البقاء في تلك الأماكن يمكن أن يعيق النمو الشخصي ويُشعر الإنسان بالعجز. بقاء الإنسان في مكان لا يُقدّره قد يقتل فيه روح الطموح ويدفعه إلى حالة من الإحباط والتراجع.

﴿۞ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ

يُحۡشَرُونَ لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ (آل عمران: 188)

البقاء في أماكن لا تقدّر الإنسان يمكن أن يؤدي إلى تراكم مشاعر الندم والضعف. الله سبحانه وتعالى يلفت انتباهنا إلى حقيقة أن البعض يسعون للفت الأنظار إليهم في أماكن لا تمكنهم من تقديم شيء حقيقي. هذا النوع من الأماكن لا يقدّر قيمتك الفعلية، بل يستغل ما لديك دون أن يساهم في تقدمك أو رفاهك. فكيف يمكن لشخص أن ينمو في بيئة كهذه؟

المغادرة ليست مجرد هروب، بل هي خطوة نحو إحياء الذات. الله سبحانه وتعالى يعلّمنا أنه يجب على الإنسان أن يسعى إلى ما هو أفضل له في الدنيا والآخرة. إذا كنت في مكان لا يقدر قيمتك، فقد حان الوقت لتغيير الوضع. المغادرة ليست علامة على الضعف، بل على القوة الداخلية، والقدرة على اتخاذ قرارات حاسمة لمصلحتك.

قال تعالى:

﴿يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُواْ فِي مَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَأَمَّاْ مِنْ جَاءَ بِهِۦ فَسَحَقًا سَحَقًا (الأنعام: 44)

الاستمرار في أماكن لا تقدرك يعرّضك لانتقاص قيمتك الذاتية. الله يعطينا إشارات واضحة أن البيئة التي لا تقدرنا أو تقدّرنا بقدر ما تعطيها من مشاعر وأفعال، لن تثمر فينا نجاحًا حقيقيًا. الفشل في تقديرك يتسبب في تراجعك وتدمير إمكانياتك.

علينا أن نتذكر دائمًا أن ما يمكن أن يؤذيك لا يستحق البقاء فيه. الله سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده البقاء في أماكن يضيع فيها الجهد والطاقة. يجب أن يكون هناك توازن في علاقاتنا مع الناس وفي الأماكن التي نختار أن نبقى فيها. إذا لم تكن تلك الأماكن تضيف لنا قيمة أو تحترم وجودنا، فلا ضير في مغادرتها والبحث عن بيئة أكثر دعمًا واحتضانًا لمواهبنا وطموحاتنا.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (هود: 113)

الله سبحانه وتعالى يُحذّرنا من الركون إلى أولئك الذين لا يحترموننا، لأن التمسك بهم قد يؤدي إلى تدميرنا الروحي والنفسي. إذا كنت تشعر أن المكان الذي أنت فيه لا يُقدّرك ولا يعترف بمجهودك، فإن التمسك بهذا المكان ليس فيه منفعة. قد يؤدي التمسك به إلى فقدان الروح والقدرة على النمو.

إنه لا بأس من المغادرة إذا كنت ترى أن التقدير والاحترام قد غابا. كما أن الله سبحانه وتعالى يريد لك الأفضل دائمًا، ويرشدك إلى البحث عن أماكن تستحقك وتمنحك القدرة على النمو والازدهار. المغادرة قد تكون البداية لتجربة جديدة، مليئة بالفرص التي تقدّر فيها شخصيتك.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ كُلِّ قَرْيَةٍۢ أَئِمَّةً لِيَحْكُمُوا۟ بِئَايَٰتِهِۦۚ وَمَا جَآءُوا۟هُمْ فَإِنَّا مَحْكُومُونَ (المائدة: 44)

أيّ مكان لا يقدرك ويُهمشك يتعرض فيه الإنسان لأفكار وأحاسيس تؤثر عليه سلبًا، ويجب أن يُستبدل بمكان يثري ذاته ويُعزز من قدراته.

لا تردّ الإساءة بإساءة... لكن لا تصمت دائمًا

حين يُسَاء إليك، ينساب شعور بالظلم داخل قلبك وتبدأ أسئلة كثيرة تدور في ذهنك: لماذا أنا؟ كيف لي أن أواجه هذا؟ في لحظات الغضب، قد تضعف إرادتك وتجد نفسك في مواجهة مع الخيارين الصعبين: إما الردّ على الإساءة بالمثل، أو السكوت تمامًا. ولكن، ماذا لو كان في سكوتك ضعفًا، أو في ردك إساءة أخرى؟

الردّ بالمثل في معظم الأحيان يزيد الأمور سوءًا، إذ ينقلب الجدل إلى دائرة مغلقة لا تنتهي، فكلما ازداد الهجوم، ازدادت الدفاعات

وتضخم الإحساس بالعداوة. اللّٰه سبحانه وتعالى قد وضّح لنا في القرآن الكريم الطريق الأمثل للردّ في مثل هذه المواقف. في الوقت نفسه، وجهنا إلى أنه ليس كل صمت هو علامة على القوة

وأنه لا يجب أن نترك الإساءة تطيل الجرح. فالأمر ليس ببساطة بين العفو أو الانتقام، بل هو توازن دقيق بين الحكمة في الرد وحماية الذات.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا

(النساء: 86)

الآية الكريمة تشير إلى أهمية الرد بطريقة أفضل من التحية، بل أن الله تعالى يرشدنا إلى التعامل بأحسن من الذي يقدمه الآخرون لنا، حتى لو كان ذلك لا يرقى لمستوى ما نستحقه. هذه الآية تحمل في طياتها رسالة عظيمة: أن الرد يجب أن يكون منبثقًا من الفضيلة، بغض النظر عن إساءة الآخرين. هذا لا يعني الصمت أمام الإساءة، بل يعني اختيار الرد اللائق الذي لا يجرح الشخص الآخر أكثر.

هناك فرق بين رد الإساءة بالإساءة وبين الدفاع عن النفس في حال تواصلت الإساءة. في بعض الأحيان يكون السكوت أشبه بالاستسلام، ويجعل الشخص المسيء يشعر بأن له الحق في الاستمرار في إيذائنا. ففي تلك اللحظات لا بد من الرد، ولكن الرد الذي يحافظ على كرامتك ويجعل الآخر يتأمل في تصرفاته. السكوت هنا ليس ضعفًا بل هو قرار استراتيجي عندما يكون الرد بالسلامة أكثر حكمة.

قال تعالى :

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (الشورى: 40)

الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا أن التعامل مع الإساءة له حدود، فهناك جزاء مقابل السيئة، لكنه في الوقت ذاته يجعل العفو والصلح أقوى بكثير من الرد بالمثل. العفو هو أعلى درجات القوة.

ليس السكوت هو الخيار الوحيد، ولكن عندما يتم الرد من باب العفو، يمكن للإنسان أن يشعر بأن روحه أعلى من الحقد والانتقام، وأنه ليس مجرد ردّ فعل على الإساءة، بل هو موقف نابع من قوة الإرادة والتفكير الواعي.

لكل فعل هناك رد فعل، ولكن الرد الذي يزيد المشكلة تعقيدًا لا يؤدي إلى نتيجة مرضية. اللّٰه سبحانه وتعالى يعزز فينا هذا المبدأ في كل موقف نواجهه بأننا لا نُفضّل الرد بالعنف، بل نختار أحيانًا الصمت ليس ضعفًا بل حرصًا على عدم زيادة الفتنة.

قال تعالى:

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (آل عمران: 134)

المغفرة في هذه الآية الكريمة تعني أن القدرة على السيطرة على الغضب أكبر من الرد الفوري على الإساءة. إذا تفاعل الإنسان بشكل مباشر مع كل إساءة يتلقاها، فإنه سيصبح أسيرًا لغضبه. لكن من يستطيع أن يكظم غيظه ويعفو عن الآخرين، فإنه يفوز بالأجر العظيم عند الله. العفو ليس ضعفًا، بل هو عزيمة وقدرة على السير في الطريق الصحيح رغم ما يواجهه من صعوبات.

إذن، في الحياة لا بد للإنسان من أن يوازن بين الصمت والحركة، بين الحلم والانفعال، وبين الرد الفوري والتروي. أن ترد على الإساءة بهدوء، وأن تضع نفسك في مكان الشخص الآخر قبل أن تصدر حكمك أو تتخذ قرارًا، هو الموقف الذي يوصي به ديننا. ليس كل إساءة تستحق ردًا غاضبًا، كما أن ليس كل صمت هو علامة على الرضا.

الله تعالى دعانا لنتعامل مع الآخرين بحكمة وعقل في وقت ندافع فيه عن أنفسنا، وفي وقت نختار فيه العفو.

لا تستهن بابتسامة من لا تعرفه... قد تنقذك

لم يكن يعرف الاسم، ولا الحكاية، ولا عدد الليالي المثقلة التي مرّت، لكنه ابتسم. مجرد ابتسامة من عابرٍ لا يملك شيئًا سوى وجهٍ يُشرق للحياة، لكنها اخترقت الصمت القاتم، وانفكت بها عقدة في الحلق وتهاوت معها جبال من الهمّ كانت تتراكم بصمت.

ليست كل النجاة تأتي على هيئة
معجزة، بعضها يمرّ في لحظة خفيفة، لكنها تُشعل
نورًا لا يُطفأ. في عالمٍ يضجّ بالقلق، ويضيق فيه
الصدر بالثقل، تصبح الابتسامة كلمة صامتة تنطق
بكل ما عجز اللسان عن قوله، وتفتح للروح نافذة
صغيرة تتسلل منها أنفاس الأمل.

قال اللّه تعالى: "وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْنًا (البقرة: 83)

فما أحسن من وجهٍ يبتسم في وجه الغريب ليمنحه ما لا يمنحه الأقربون: الشعور بأنه مرئي، أنه موجود، وأن الحياة لا تزال تحمل وجوهًا بيضاء لا تعرف إلا أن تضيء. ولأن اللّه لطيف بعباده، فإنه يبعث إليهم إشارات لطفه في أبسط الأشياء، وقد تكون الابتسامة واحدة منها. تلك التي ترمم الإنسان من الداخل، بلا سؤال، بلا عتاب، بلا معرفة سابقة. هي لغة الرحمة التي يتقنها الصالحون، والمارّون الذين يحملون السلام في حضورهم.

قال اللّه عزّ وجل:

"فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ"

(الحاقة: 19–21)

وما العيشة الراضية إلا تلك التي كانت فيها للناس مواقف طيبة صغيرة، لكن أثرها بلغ يوم الحساب.

الابتسامة، حين تخرج من قلب نقي، لا تكون مجاملة ، بل دعاء صامت. ولعلها كانت رحمة، أو صدقة، أو مفتاحًا للطمأنينة في زمنٍ تشوّهت فيه المعاني. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة" [رواه الترمذي]،

فكيف إذا كان الأخ مجهولًا في الاسمِ، معروفًا في الإنسانية؟

إنها لا تحتاج إلى معرفة، ولا مناسبة، فقط إلى وعيٍ بأن الإنسان مرآة لأخيه، فإذا كانت الروح مُحبطة يكفيها أن ترى انعكاس الأمل في وجهٍ لا تعرفه لتستعيد شيئًا من توازنها.

*وكم من خطوةٍ لم تكن لتُكمل الطريق
لكن ابتسامة وحيدة جعلتها تمضي. وكم من روحٍ لم
تكن لتستمر، لكن نظرة ودّ طمأنتها أن الخير لا يزال
على قيد الحياة. وهكذا، في عالم ينهشه الجفاء
تصبح الابتسامة فعل نجاة… ووردة لا تذبل في
ذاكرة من كاد أن يسقط.*

الغريب قد يُنقذك حين يخذلك القريب

من عبر حياتك دون أن يؤذيك.. هو هدية

الخذلان لا يأتي من فراغ، بل من طعنات ترتدي ملامح مألوفة

من وجوه كانت يومًا ملاذًا، فإذا بها تطفئ نور المأوى وتُغلق أبواب الرجاء. الأقربون لا يُتوقع منهم سوى الاحتواء، لكن حين ينقلب الظن إلى وجع يتحول القرب إلى عبء، والعِشرة إلى اختبار صعب للروح.

في لحظة انهيار، حين تسقط الجدران واحدة تلو الأخرى، يأتي الغريب.

لا يحمل تاريخًا مشوشًا، ولا وعودًا معلقة، بل يحمل شيئًا من الفطرة النقية، والعطف المجرد من الشروط. يمدّ يده لا ليُدين

بل ليرفع. لا يسأل عن التفاصيل، بل يرى الإنسان المنكسر ويمنحه دفئًا صامتًا.

ذلك التدخّل المفاجئ في أصعب اللحظات
ليس عبثًا بل تدبير. قال تعالى:

"وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ"

(البقرة: 216)

وما أكثر الخير الذي يأتي على هيئة بشر
لم يكونوا في الحسبان، لكنه اختيار اللّٰه حين تضيق
الأرض بما رحبت.

وحين يمرّ أحدهم في حياتك بلا أذى، دون أن يتعمّد كسرًا أو يزرع خيبة

فهو نادر كالسلام. فالعالم مليء بمن يُتقنون الطعن تحت مسميات القربى، لكن من يمرّ دون أن يترك في القلب شقًا، هو كالرّحمة التي لا تُدرَك إلا بعد الغياب.

قال الله تعالى في وصف عباده المخلصين: "وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا..."

(الفرقان: 63)

هؤلاء هم الهدايا الخفية، أولئك الذين لا يملكون الكثير، لكنهم لا يأخذون منك شيئًا... لا وقتك، ولا طمأنينتك، ولا كرامتك.

وقد يُرسل الله الغريب ليكون جوابًا لدعوةٍ من قلب موجوع، أو ليكون دليلك أن الطهر ما زال حيًّا في وجوه لا تحمل عنك اسمًا، لكنها تحمل لك السلام.
فتلك الهدية ليست في الأفعال الكبيرة، بل في تفاصيل صغيرة تمرّ بلين، كأنها نسمة هاربة من رحمة الله.

وما بين خذلان القريب، ونُبل الغريب
تنكشف الحقائق وتُعاد صياغة الثقة. فليس الدم
وحده من يربط، بل الرحمة. وليس القرب في المكان
بل في النية. فالهدايا لا تكون مغلّفة دائمًا، أحيانًا
تأتي على هيئة حضورٍ نقي... يمر دون ضرر، ويُثبت
أن بعض الأرواح خُلقت لتكون ضمادًا لا شوكة.

بعض المواقف تخلّد أصحابها في ذاكرتك للأبد

ليست الأعمار وحدها ما يخلّد الوجوه، ولا كثرة اللقاءات ما يحفظ الحضور في القلب. إنما هي المواقف، تلك اللحظات الفاصلة التي تكشف عن جوهر لا يُرى في الكلام ولا يُقاس بالزمن.

موقف واحد، بكلمة واحدة أو فعل بسيط، قد يعلو بقيمة صاحبه في الذاكرة إلى الأبد، فتغدو صورته ثابتة في عمق الوجدان، وكأنه لم يغادر أبدًا.

بعض اللحظات لا تنسى لأنها جاءت في وقت شحّ فيه الوفاء، أو لأن صاحبها فعل ما لم يفعله أقرب الناس. لحظة صدق وسط زيف، لحظة عطاء وسط أنانية، لحظة نصرة وسط خذلان.

تلك المواقف تنقش في القلب كما يُنقش الحجر، لا يمحوها الزمن ولا تبهتها المسافات.

في كتاب الله، خُلِّدت مواقف رجال ونساء لا لأسمائهم، بل لأفعالهم. يوسف عليه السلام لم يُنسَ ذكره لأنه نبي فقط، بل لأن صبره في الجبّ، وعفته في الفتنة، وعفوه عند المقدرة، كانت مواقف تضيء بها سورة كاملة: "وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ" (يوسف: 21). وتمكينه جاء بعد موقف، لا بعد طلب.

ومريم، التي اصطفاها الله، كان وقوفها صامتة في وجه الاتهام أعظم من ألف حجة، فتجلّت في آية: "فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ" (مريم: 29).

فأشارَت، فقط، وكان الصمت أبلغ من ألف قول... موقفٌ علّم العالم الصبر والثقة.

المواقف الحاسمة تُنقّب عن الأعماق، تُعرّي الضعف أو تُظهر القوة. ليست في لحظة رخاء يُقاس الناس، بل في ضيق الحاجة، وحين تهتز الأرض، ويُفتن القلب ويشتدّ البلاء. هناك فقط، يُصنَع الخلود الحقيقي في الذاكرة.

وقد يُكتب لأحدهم أن يعيش في
القلب دون إذن، لأن موقفًا له أحيا جزءًا من الروح أو
رمّم شيئًا مكسورًا لم تفلح الأيام في إصلاحه. لا
يُطلب منهم البقاء، لكنهم يبقون، لأن الموقف أعمق
من كل روابط البشر.

قال تعالى: "مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ"
(الزلزلة: 7).

وقد لا يرى ذلك الخير إلا القلب المتعب الذي تلقّاه
لكنه كافٍ ليخلّد فاعله، ولو بصمت، ولو دون شكر.
وهكذا، تظل المواقف هي مرآة القلوب، وما يُخلّد من
البشر ليس المال، ولا النسب، ولا المناصب، بل
الموقف... موقفٌ يُقال عنه بعد سنين: "لن أنسى ما
فعل"، وتُغلق الجملة، ويُفتح له باب في الذاكرة... لا
يُغلق أبدًا.

من يُحسن الكلام لا يعني أنه طيّب

اللسان مرآة، لكنه أحيانًا مرآة زائفة. الكلمات المنمقة قد تُسكر السامعين

لكنها لا تحمل بالضرورة صفاء النية ولا نقاء القلب. فبين فصاحة القول وصدق الطوية مسافة لا تُقاس بحلاوة العبارة، بل بثقل الموقف ونقاء الضمير. كم من ألسنة ناعمة تحترف الطيبة في الظاهر، لكنها تخفي نوايا كالعلقم، تُمطرك وُدًا وتُبيّت لك السمّ.

الطيبة ليست مهارة لفظية، بل مقام داخلي لا يُمثّل بل يُعاش. من الناس من يلبس قناع الحُسن، يطرز كلماته باللطف ويصنع الهالة من رقيّ الحديث، لكنه في الخفاء يمارس عكس ما يَظهر.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة: 204).

إعجاب السامعين بكلامه لم يكن برهان خيره، بل كان فتنة، وكان قوله قناعًا يخفي وراءه خصومة شرسة.

الطيب لا يُقاس بكمّ المجاملات، بل بصدق الفعل عندما تُختبر النفوس. لأن القلوب وحدها من تعرف الطيب، لا الأذن. فالصادق لا يحتاج لتطريز القول كي يحب، ولا لخطابة كي يواسي. تأتي الطيبة منه كما يأتي النسيم من بين الأشجار، لا يُرى، لكنه يُحسّ ويُشهد له

والله جلّ شأنه فرّق بين القول والفعل

فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: 3)

فالكلام، مهما زُخرف، إن لم يُصدّق بعمل فمأواه السقوط في هوة النفاق. لأن الطيب لا يَرضى أن يُجَمّل صورة لا يعيشها، ولا أن يُعجب الناس بشيء لا يملكه قلبه. وقد تتساقط الأقنعة حين تشتد الحاجة إلى الفعل لا القول، وعندها يُعرف من كان طيبًا فعلًا، ومن كان صوته طيّبًا فقط. فالكلمات تُنسى، لكن الطيبة تُثبتها المواقف، ويُخلّدها الوفاء لا البلاغة. وفي ميزان السماء، لا يُوزن الناس بمهاراتهم اللفظية بل يُوزنون بما زرعته قلوبهم وأثبتته جوارحهم. وما كل من يُتقن الحرف طيّب، وما كل صمتٍ دليل غباء. فقد يكون أصدق الناس قلبًا أخرسَ لسانًا، لكنه أرقى مقامًا عند الله من مَن يتلوّن بين المجالس.

العِتاب لا يُفيد من مات ضميره

في زمن تتداخل فيه النوايا وتتبدل فيه
الوجوه، يبقى العتاب محطّ أمل لمن يمتلك قلبًا حيًا.
لكن عندما يموت الضمير، لا يكون للكلمات أي قيمة و
لا لأي عتاب وجود. الإنسان الذي أغمض عينيه عن
الحق، وحجب قلبه عن الإحساس بالآخرين، أصبح
في عالم آخر، حيث لا تنفع معه المواعظ ولا التأنيب.

العتاب في طبيعته هو محاولة
للصلح، هو تأكيد العلاقة، هو إشعار بالمسؤولية تجاه
الآخر، حتى وإن كانت الحروف تحمل بعض القسوة.
لكنه عندما يُلقى على قلبٍ مُغلق، لا يرد عليه سوى
صدى فراغه. القرآن الكريم بيّن هذه الحقيقة في
قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا
سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾
(السجدة: 15). أولئك الذين يستجيبون للذكرى
ويسعون نحو التوبة والرجوع إلى الحق هم الذين
يملكون القلوب الحيّة. أما الذين مات ضميرهم، فقد
أغلقوا أبواب القلوب، وأحاطوا أنفسهم بجدران من
الصمت أو اللامبالاة، فكيف سيصلهم العتاب؟

العتاب ليس إلا محاولة للفتح على أبواب الضمير المطفأ، لكن إذا كان القلب قد أصبح لا يبصر ولا يسمع، فإن الكلمات تصبح مجرد ضجيج يتلاشى في الهواء.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ (آل عمران: 73)،

هؤلاء الذين تقوّضت فيهم القيم، وانطفأت في أعماقهم جذوة المروءة، يصبح العتاب معهم أضغاث أحلام. لا يهمّهم ما يقوله الآخرون، ولا يأبهون لمشاعرهم، إذ يظنون أن الكون يدور حول رغباتهم فقط.

وقد يُقال إن العتاب لا يعني الهجوم أو الإساءة، بل هو محاولة لتصحيح المسار وإعادة تصويب العلاقات التي قد تكون مرّت بفترات من الفتور أو الإهمال. لكن مع من لا يشعر، مع من ابتعد عن الرحمة وعن الفطرة السليمة، تصبح المحاولات عبثًا. وكأن العتاب على ألسنتنا يتحول إلى زهور تذبل فورًا إذا لم تجد التربة الصالحة. الله عزّ وجلّ بيّن في القرآن الكريم حقيقة هؤلاء القلوب المغلقة في قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُحْشَرُ أَشْيَاءَ فِي قَدَمِهِ وَقُلُوبٍ لَا يَفْهَمُونَ﴾ (آل عمران: 7).

العتاب على هؤلاء مثل إلقاء الحجارة في البحر، لا تحدث التغيير الذي تنتظره. عكس ذلك، فإن من يملك ضميرًا يقظًا وإن كنا نغضب أحيانًا منه، يبقى أمل العتاب معه أكثر وضوحًا. فإذا لم يؤثر العتاب في صاحبه، فقد جاء الوقت لنعترف بأن هناك من لا يتأثر

بالكلمات، ولا يفهم إلا لغة السكون. فالعتاب قد يكون بمثابة جسر للعودة، لكن مع من لا يملك سوى الظلام في قلبه، يصبح كل شيء فارغًا، حتى العتاب نفسه. في النهاية، العتاب يُلقي ضوءًا على الأنفس التي تبحث عن الصلاح، لكنه لا يترك أثرا في النفوس التي أصبحت غارقة في ظلام اللامبالاة.

سامحتُ... لا لأنهم يستحقون، بل لأني أستحق الراحة

حين يتحوّل الألم إلى عبء ثقيل يثقل الصدر، وحين تزدحم الذكريات بالكثير من الجروح التي لم تندمل بعد، يصبح السؤال الأكثر تأثيرًا:

هل يمكننا حقًا أن نغفر؟ هل يكفي القول "سامحتُ" لنتحرر من تلك القيود التي تمسك بنا من الماضي؟

في الحقيقة لا يُقاس العفو بما يستحقه الآخرون، بل بما نحتاجه نحن لأنفسنا.

العفو ليس دائمًا هدية نقدمها للآخرين بل هو هدية نقدمها لأنفسنا، فتلك اللحظة التي نطلق فيها مشاعر الغضب والحقد من داخلنا، نجد الراحة الحقيقية التي طالما بحثنا عنها.

الله تعالى في كتابه الكريم يحث على التسامح و العفو، ويشجّعنا على أن نكون أهل فِعل الخير حتى لو كنا في موقع من يُساء إليهم. في قوله تعالى:

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَفْرَحُوا بِالْفَسَادِ وَإِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 237)

يُبيّن لنا الله أن العفو ليس مجرد فعل طيب فحسب بل هو أقرب لمرضاة الله وأشد تقوى. العفو في ذاته هو خطوة نحو تهدئة القلب، وإعادة التوازن النفسي الذي قد يضطرب بفعل الغضب والحقد. لذلك، عندما نسامح، لا نفعل ذلك لأنهم يستحقون، ولكن لأننا نحتاج إلى الراحة الداخلية، إلى الخلاص من السجناء الذين نصنعهم في عقولنا بأن نُصر على أن ننتقم أو نحقد.

ليس هذا فحسب، بل إن التسامح يجعل من قلبنا مكانًا رحبًا للسلام الداخلي. حين نختار أن نُغلق باب الأذى وراءنا ونفتح باب الراحة أمامنا، نُعطي أنفسنا الفرصة للنمو،

لأننا لا نسمح لما حدث في الماضي أن يلوث حاضرنا أو يسرق منا قدرتنا على العيش

بسلام. الله عزّ وجلّ يعظّم فعل التسامح ويؤكد أنه الطريق الأنسب للتخلص من شواكل القلب

كما قال في القرآن الكريم:

﴿فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّـهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: 40)

إنه لا شيء يمكن أن يشفي القلب من الألم أكثر من العفو. قد يبدو الأمر في البداية صعبًا، حيث يكون الجرح حديثًا والذاكرة لا تزال مشحونة بمشاعر الغضب، لكن من أعظم العطايا التي يمكن أن نقدمها لأنفسنا هي أن نسمح لأنفسنا بالشفاء، وأن نطلق سراح الماضي الذي يثقلنا.

الأمر لا يتعلق أبدًا بأنهم يستحقون العفو، بل يتعلق بنا نحن. نُسامح لأننا نُريد الراحة،

لأننا نُريد أن نعيش بسلام. في الحقيقة، حتى لو بقيت القلوب التي أساءت إليك في مكانها، فإنك أنت من تتنقل من نقطة الألم إلى نقطة الشفاء. في كل مرة تختار أن تترك الحقد، تكون قد اخترت أن تعيش بنقاء، لأنك في النهاية من تملك زمام قرارك الداخلي.

الراحة التي نبحث عنها ليست في الانتقام بل في التسامح. لا توجد راحة توازي الراحة التي نشعر بها عندما نحرر أنفسنا من عبء الحقد و الكراهية. الله سبحانه وتعالى يوجهنا في القرآن إلى أن نعفو ونصفح، لأن في ذلك راحة لنا ورفعة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى:

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّـهُ لَكُمْ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: 22)

إن المسامحة هي علاج نفسي نحتاجه جميعًا لنعيش بسلام داخلي. حين تفتح قلبك لتسامح من أساء إليك، أنت تُعطي نفسك حرية حقيقية، لأنك لا تظل مكبلًا بماضٍ مؤلم أو مشاعر حقد تأخذ منك كل وقتك. التسامح لا يعني النسيان أو القبول بما حدث بل يعني أن تترك الماضي وراءك وتختار أن تعيش حياة أكثر إشراقًا.

في النهاية، لا نتسامح فقط من أجل الآخر، بل من أجل أنفسنا. لأن الراحة التي تأتي بعد التسامح هي تلك التي تغني الروح وتحررها من قيود الحقد.

خاتمة الكتاب

ها قد انطوت الصفحات، لكن ما انطوى أعمق من الحبر، وأصدق من اللغة. ليست نهاية الكلمات دائمًا خاتمة لما نحسّ به، بل بداية لإدراكٍ جديد ورؤيةٍ أكثر صفاءً لما يحدث في داخلنا. فكل فكرة خطها سيف الدين هنا لم تكن من فراغ، بل خرجت من رحم التجربة، ومن عتمة مرّ بها النور، ومن تعبٍ صار حكمة. ما كُتب، ليس إلا صدى لأرواح كثيرة صامتة، تبحث عن صوتٍ يشبهها، عن كلمةٍ تمسّ جرحها دون أن تفاقمه، عن شعورٍ مألوف يُطمئنها بأنها ليست وحدها في المعركة. هذه السطور ليست للوعظ، بل للمشاركة. ليست للتأنيب، بل للتخفيف. كأن كل فصل كان يمدّ يده لروحٍ أنهكتها الخيبات.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: 82)

وفي الختام، لا تبحث الروح عن الكمال، بل عن الصدق. لا تلهث خلف عدد الصفحات، بل خلف عمق ما تحمله. وقد أراد سيف الدين، أن يترك هنا أثرًا لا يُشبه غيره... أثرًا يشبهه هو.